# الأساليب البلاغية ودورها في تشكيل تقنيات الدعاية

# في مقامة (بلبل الروضة) للسيوطي

إعداد


دكتورة

**غادة محمد عبد المهيمن**

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية



١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٣م

# الأساليب البلاغية ودورها في تشكيل تقنيات الدعاية في مقامة (بلبل الروضة) للسيوطي

**غادة محمد عبد المهيمن**
**قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.**
**البريد الإلكتروني:**
Ghadah.Abdelmohaymen@azhar.edu.eg

**ملخص البحث:**

قدم السيوطي في مقامة (بلبل الروضة) جزيرة الروضة في صورة مبهرة متميزة، وضمن مقالته فيها حقائق علمية وتاريخية قيمة ممتزجة بنكت ولطائف؛ وملح وطرائف، فأثار في النفوس التشوق لزيارة هذه الجزيرة، وحرك في القلوب التشوف إلىٰ سكناها، وهو ما يجعل الذهن يقارن بين ما قدمه السيوطي في هذه المقامة وما يقدم اليوم من دعاية لبعض المدن والمجتمعات العمرانية الجديدة، ليجد أن أساليب السيوطي في مقامة (بلبل الروضة) شكلت كثيرا من تقنيات الدعاية المستعملة في هذا العصر، وأنها تتفوق علىٰ ذلك كله بصياغتها في قالب أدبي متميز؛ من خلال أساليب بلاغية فنية؛ مدعومة باقتباسات من الكتاب والسنة وتضمينات من مأثور النثر والشعر، وعرض ذلك كله بسلاسة وانسجام وحسن سبك، يبرز بوضوح ما تمتع به السيوطي من عقلية فذة وعلم غزير وموهبة أدبية، مما مكنه أن يطوع اللغة ويوظف الأساليب ليشكل ما يدرس اليوم من تقنيات الدعاية. وقد حاولت هذه الدراسة تناول ما في النص من تقنيات دعائية من منظور بلاغي، يبحث عن كيفية تشكيل فنون القول للتأثير الدعائي ومسلك ذلك في النفوس وما ينبني عليه من توجيه الإرادات وتكوين الاتجاهات، في محاولة للكشف عن دور الكلمة والأساليب البلاغية في تشكيل وتحقيق تقنيات الدعاية، دون الاستعانة بما يرد في

كثير من الحملات الدعائية من إسفاف وابتذال، كما تحاول ربط القواعد والأصول النظرية بجانب من تطبيقاتها العملية من خلال نص قديم حصل فيه ما يقدم علىٰ أنه من مستحدثات العلوم.

**الكلمات المفتاحية:**

الدعاية ـ بلبل الروضة ـ دراسة بلاغية ـ السيوطي ـ المقامة.

# Rhetorical methods and their role in shaping propaganda techniques in Al-Suyuti's Maqama (Bulbul Al-Rawdah)

Ghada Mohamed Abdel-Mohaimen
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Cairo, Egypt
**Email:** Ghadah.Abdelmohaymen@azhar.edu.eg

**Abstract**:

Al-Suyuti presented in the Maqama (Bulbul Al-Rawdah) the island of Al-Rawdah in a dazzling and distinct image, and included in his article valuable scientific and historical facts mixed with jokes and kindnesses; And salt and anecdotes, so it aroused in the souls the longing to visit this island, and stirred in the hearts the longing for its dwelling, which makes the mind compare between what Al-Suyuti presented in this maqam and what he presents today of propaganda for some new cities and urban communities, to find that Al-Suyuti's methods in the Maqam (Bulbul Al-Rawdah ) constituted many of the propaganda techniques used in this era, and it excels all of that by formulating it in a distinct literary template; through artistic rhetorical methods; Supported by quotations from the Book and the Sunnah and inclusions from the proverbs of prose and poetry, and presenting all of that smoothly, harmoniously and well-spoken, clearly highlights what al-Suyuti enjoyed of brilliant mentality, abundant knowledge and literary talent, which enabled him to adapt the language and employ methods to form what is being taught today of propaganda techniques. This study has tried to deal with the propaganda techniques in the text from a rhetorical perspective, looking for how the arts of saying form the propaganda effect and the way that is in the souls and what is based on it in directing the wills and forming directions, in an attempt to reveal the role of the word and rhetorical

methods in the formation and achievement of propaganda techniques, Without resorting to what is contained in many propaganda campaigns of vulgarity and vulgarity, it also tries to link the theoretical rules and principles with a side of its practical applications through an old text in which what was presented as a science innovation occurred.

**Keywords:**

Propaganda - Bulbul Al-Rawdha - Rhetorical Study - Al-Suyuti - Al-Maqama

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الخلق أجمعين؛ سيدنا محمد ﷺ؛ وعلىٰ آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد:

فإن السيوطي يعد من العلماء المبرزين والنوابغ المشهورين الذين لم تحظ البشرية إلا بقلة نادرة منهم، نبغ في مختلف علوم عصره، ولعله سبق عصره أحيانا، وكانت كثرة مؤلفاته وتنوع مجالاتها محط الأنظار ومثار الجدل، وكان من ضمن ما أبدع فيه فن المقامات، فقد نوع في موضوعاتها وطور في طريقة صياغتها، وكان من أهم مقاماته مقامة (بلبل الروضة) التي أفردت بمؤلف خاص باسمها، ودارت حول وصف جزيرة الروضة بالقاهرة؛ التي سكنها في نهاية حياته، ولم يجعل لها راو أو بطل في الظاهر، لكن المتأمل في عنوانها يدرك أنه جعل من نفسه بلبلا يروي ما جرىٰ ويجري لبطل هو الروضة نفسها، وهذه خصوصية أخرىٰ لهذه المقامة، كما أنها حوت إشارات علمية وتاريخية قيمة، مع اقتباسات من الكتاب والسنة وتضمينات من مأثور الأقوال، وقد صاغ ذلك كله بأساليب بلاغية متنوعة، امتازت بحسن السبك والتأليف، وقوة الوقع والتأثير، مما ساعد علىٰ تقديم جزيرة الروضة بصورة تحرك في النفوس التشوق لزيارتها وربما الإقامة فيها أيضا.

وقد لفتني ذلك إلىٰ ما يقدم هذه الأيام من دعاية عن المدن والمجتمعات العمرانية الجديدة، ليظهر لي أن أساليب السيوطي في هذه المقامة قد شكلت كثيرا من تقنيات الدعاية المستخدمة في هذا الشأن وغيره، واجتماع ذلك كله كان سببا ودافعا لاختيار هذا الموضوع، فالبلاغة علم يتصل بكثير من الفنون والعلوم، ومنها ما يعد امتدادا له وتطبيقا لأسسه وقواعده في الواقع، ومن ذلك الدعاية، وقد رأيت في ذلك خروجا بالدرس البلاغي إلىٰ مسارات تطبيقية في الواقع المعاش، ولعل ذلك نفسه يعد طريقا تتصل من خلاله البلاغة بفروع أخرىٰ من العلوم.

**وقد اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي**، محاولا تتبع الأساليب البلاغية في مقامة (بلبل الروضة)، والتحقق مما إذا كانت قد أثرت في تشكيل تقنيات الدعاية، وكيفية ذلك.

**وقد جاء البحث في تمهيد**، وخمسة مباحث، وسبق بمقدمة، وتلته خاتمة، وثبت المراجع، وفهرس الموضوعات.

**وقد احتوت المقدمة** علىٰ تعريف بالموضوع وتعلق عناصره ببعضها، وأسباب اختيار الموضوع، ومنهج البحث، ومشكلة الدراسة.

**وجاء في التمهيد** التعريف بالدعاية، والإشارة لعلاقتها بالبلاغة، وأهم أساليب الدعاية

**وتناولت المباحث المقامة مجزأة عليها**، فتناول المبحث الأول مفتتح المقامة، والمبحث الثاني وصف الروضة وما حوته، والمبحث الثالث منزلة الروضة ومكانتها مما حولها، والمبحث الرابع سكان الروضة وصور الحياة فيها، والمبحث الخامس خاتمة المقامة

**واشتملت الخاتمة** علىٰ أبرز ما وصل إليه البحث من النتائج.

**وأسأل الله التوفيق والسداد وإقالة العثرات، والحمد لله أولا وآخرا.**

## تمهيد

## الدعاية: تعريفها، وعلاقتها بالبلاغة، وأهم أساليبها

### التعريف

**الدعاية لغة:** أصلها من الفعل (دعا -يدعو)، وهي بمعنىٰ: (الدعْوَة إِلَىٰ مَذْهَب أَو رَأْي بِالْكِتَابَةِ أَو بالخطابة وَنَحْوهمَا)[1]، وبالرغم من اشتقاقها من الفعل (دعا) بمعنىٰ طلب أو حث أو رغب ؛ زعم البعض عدم فصاحتها، والصحيح أنها فصيحة، وقد وردت في كتاب الرسول ﷺ إلىٰ هرقل ملك الروم[2]، حيث قال: (أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام)[3].

**الدعاية في اصطلاح المتخصصين في الدعاية والإعلام:** الحقيقة أن التعريفات الاصطلاحية للدعاية كثيرة جدا[4]، وكلها تعطي مدلولات متقاربة وإن اختلفت لفظا أو أسلوبا، ومنها علىٰ سبيل المثال ما جاء في معجم المصطلحات الإعلامية الصادر عن مجمع اللغة العربية من تعريفها بأنها: (بث معلومات وأفكار وآراء محددة بواسطة أفراد أو جماعات او مؤسسات إعلامية بهدف التأثير في الرأي العام لتبني وجهة نظر خاصة تخدم مصالح القائم بالاتصال.)[5].

---

(١) - المعجم الوسيط. (دعا).

(٢) - ينظر معجم الصواب اللغوي. ١/ ٣٧٣. أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل. عالم الكتب، القاهرة. ط١. ٢٠٠٨م،

(٣) - صحيح مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. تح. محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه - القاهرة. ١٩٥٥م. باب كتاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ هرقل يدعوه إلىٰ الإسلام. حديث رقم. ١٧٧٣. ٣/ ٣٩٣.

(٤) - ينظر علىٰ سبيل المثال ما ورد في كتاب الدعاية والإقناع، الأسس النظرية والتطبيقية. ١/ ١٧ وما بعدها. عاطف عدلي العبد. دار الفكر العربي. ٢٠٠٧م.

(٥) - معجم المصطلحات الإعلامية. ٧٣. لجنة ألفاظ الحضارة. مجمع اللغة العربية - القاهرة. ٢٠٠٨م.

فتعريفات الدعاية عندهم تكاد لا تخرج عن كونها وسيلة لنقل الأفكار إلىٰ الآخرين والتأثير عليهم وإقناعهم بسلوك أو معتقد أو فكرة.

والدعاية باعتبارها علما مستقلا له أصوله وقواعده واصطلاحاته تعد من العلوم الحديثة، أما باعتبارها فنا وسلوكا إنسانيا وثقافيا فهي قديمة جدا[١]، وقد قيل إنه في الدولة الفاطمية أنشئت وظيفة داعي الدعاة، وكانت مهمة القائم بها الترويج لنظام الحكم إلىٰ جانب الاختصاصات الدينية[٢]، مما يعني أن فكرة الدعاية بمعنىٰ الترويج والتأثير في الجماهير كانت ملحوظة ومعهودة في عهد السيوطي.

**علاقة البلاغة بالدعاية**

من خلال ما مر عن تعريفات الدعاية لغويا واصطلاحيا يظهر أنها تعد غرضا من أغراض الكلام وهدفا من أهداف المتكلم، وأن الوصول لتحقيقها – خاصة في الدعاية القولية منطوقة أو مكتوبة – يحتاج إلىٰ أن يكون المتكلم متمكنا من البلاغة وقواعدها، وعنده من الحس والذوق والموهبة ما يعينه علىٰ إنجاح مهمته.

فإننا إذا نظرنا إلى البلاغة باعتبار تعريف الرماني لها بأنها: (إيصال المعنىٰ إلىٰ القلب في أحسن صورة من اللفظ)[٣]، نجد الدعاية في أمس الحاجة لمعرفة الطرق والوسائل الكلامية التي تعين المتكلم علي إيصال معناه علىٰ هذه

---

(١) – ينظر الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ، حضارات الشرق القديمة. ٧٤ وما بعدها. برهان شاوي. دار الفارابي. بيروت – لبنان. ط١. ٢٠١٢م.

(٢) – الدعاية والإقناع، الأسس النظرية والتطبيقية. ١٠ وما بعدها.

(٣) – النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ٧٥ ما بعدها. علي بن عيسىٰ بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني. تح. محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام. سلسلة الذخائر. دار المعارف – مصر.ط٣. ١٩٧٦م.

الصورة ، وإذا نظرنا إلىٰ البلاغة باعتبار تعريف أغلب البلاغيين لها بأنها: (مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحته)[1]، نجد أن من شروط الدعاية الناجحة معرفة المقام ومطابقة الكلام لمقتضاه حتىٰ يتفاعل الجمهور المستهدف مع الدعاية بالصورة المطلوبة[2]، فالدعاية علىٰ كل تعتبر من تطبيقات البلاغة وعلومها؛ وامتداداتها في الواقع المعاش.

**والدعاية ترتبط بالبلاغة بعلاقة العموم والخصوص**، فعلوم البلاغة تتداخل مع مجالات علمية كثيرة غير الدعاية، فتتصل بعلوم اللغة والمنطق والفلسفة، والدراسات الشرعية والعقدية، وبعلم النفس وعلم الاجتماع وغير ذلك، فالدعاية من هذه الجهة أخص من علوم البلاغة، والدعاية – خاصة في عصرنا هذا – تتصل بعلوم أخرىٰ ولا تقف عند فاعلية الكلمة وأثرها، فتتصل بفنون الرسم والتصوير، وبالصوت والموسيقىٰ، والإليكترونيات، وعلم النفس وعلم الاجتماع، وغير ذلك، فهي من هذه الجهة أعم من البلاغة، ويمكن تشبيه حالهما من بعضهما بدائرتين؛ تتقاطعان في منطقة محددة منهما؛ يتصلان ببعضهما فيها، وهذه المنطقة تتسع وتضيق تبعا لطبيعة الاستخدام وآلياته.

(١) – تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. ٤٢ . للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ـ قرأه وكتب حواشيه وقدم له د.ياسين الأيوبي ـ المكتبة العصرية صيدا – بيروت ط١، ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر الدعاية والإقناع، الأسس النظرية والتطبيقية. ٥٧ .

**تقنيات الدعاية**[١]

من الأساليب التي استخدمت في الدعاية وكانت ذات فاعلية وأثر الأسلوب الديني؛ بمعنىٰ أن يرتبط المروج له أو موضوع الدعاية بالدين من خلال النصوص أو المقدسات والرموز الدينية لاستمالة المخاطب من جهة عقيدته أو عاطفته الدينية، والأسلوب العلمي؛ بمعنىٰ أن يرتبط موضوع الدعاية بمفاهيم ومصطلحات علمية أو أن يصبغ أسلوب الحديث عنه بصبغة علمية من خلال استعمال مصطلحات العلوم أو الإحصائيات والدراسات، وأسلوب الاستشهاد بالمصادر الموثوقة مثل المراجع العلمية والأقوال المأثورة والأمثال والحكم والشعر، وأسلوب التوصية من قبل مختص ولا يشترط أن يكون من الشخصيات اللامعة أو المشهورة بل يكفي أن يكون ذا خبرة.

**ومنها أسلوب الصورة الذهنية**؛ بمعنىٰ إيصال صورة مثلىٰ عن موضوع الدعاية تعطي انطباعات مميزة لدىٰ المخاطب وتؤثر علىٰ توجهاته، وأسلوب الاختيار بحيث يختار الدعائي من الحقائق ما يخدم غرضه ولا يعرض إلا ما يخدم أهدافه، وأسلوب التكرار الذي يعتمد علىٰ تكرار المعنىٰ أو الفكرة أو اللفظ وذلك بغرض تمكينه في القلوب والعقول لئلا ينسىٰ من منطلق أن الشيء إذا تكرر تقرر، وأسلوب تسمية الأشياء بغير أسمائها، وأسلوب التنميط أو القولية ، وأسلوب إطلاق الشعارات، وأسلوب التضخيم والتهويل والمبالغات، وأسلوب الأساطير الدينية والتاريخية حيث يوظف القائم علىٰ الدعاية بعض الأساطير القديمة وما فيها من رموز أو معلومات للوصول إلىٰ هدفه.

---

(١) – ينظر في هذا الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ. ٥١ وما بعدها، الدعاية والإقناع، الأسس النظرية والتطبيقية. ٥٦ وما بعدها.

**ومنها أيضا أسلوب إبدال الفكر**؛ وهو يعنىٰ تغيير اتجاه أو موقف فكرىٰ معين لدىٰ فرد أو مجموعة واستبداله باتجاهات أو مواقف أخرىٰ، وأسلوب ادعاء الإجماع؛ أو السير في الركب ويعتمد علىٰ نظرية الأقلية الصامتة، ويستخدم هذا الأسلوب لإيهام المخاطب بأن موضوع الدعاية محل إجماع وأن عليه ألا يتخلف عن الركب، وأسلوب الاستفادة من الشخصيات اللامعة لما جبلت عليه النفوس من التطلع لمجاراة المشاهير والسير علىٰ خطاهم.

**ومنها أسلوب التشكيك في الآخر** ومفاخره بحيث لا يعلو علىٰ موضوع الدعاية أو ينافسه، وأسلوب التقليل ويشمل التقليل من المنافس أو التقليل مما يسيء لموضوع الدعاية، وأسلوب التظاهر بمنح فرص الحوار والتعبير عن الرأي لجميع الاتجاهات، وأسلوب التجديد؛ من حيث تغيير طريقة العرض وأسلوب التناول، وأسلوب النكتة (الطرفة) الذي يعتمد علىٰ مزج الكلام بروح الدعابة وإشاعة جو من المرح، وأسلوب تحويل الانتباه بحيث يصرف ذهن المخاطب عما من شأنه أن يحول بين المتكلم وهدفه من الدعاية بالتشويش أو الإلباس أو إثارة الحيرة ، وأسلوب الحذف؛ بأن يحذف من الكلام ما من شأنه أن يعوق التأثير المطلوب في المخاطب مثل حذف بعض الحقائق أو الأحداث أو الألفاظ، وأسلوب التحريف بتغيير بعض الحقائق والمعلومات تغييرا يسيرا لصالح موضوع الدعاية.

**ومنها أسلوب مناقشة الاحتياجات وادعاء إشباعها**؛ وهو ما يشعر المخاطب بتوفير احتياجاته فيتولد لديه شعور بالأمان والاطمئنان، وأسلوب التلاعب بالصدق والحقائق، وأسلوب ادعاء الموضوعية وكأنما يناقش الدعائي الأمر بحيادية دون تدخل؛ بينما هو يقدم الأمر من زاوية تخدم هدفه فحسب.

## نص المقامة(١)

### بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾(٢)

نطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر أحسن البقاع، وتضافرت علىٰ ذلك آثار الصحابة والأتباع، وانعقد علىٰ ذلك الإجماع، وشهد الحس بأن الروضة منها كمركز الدائرة فهي لها كالقطب والأساس، وقام النظر علىٰ أنها أنزه بقعة فيها فأنتج أنها أحسن بقاع الأرض بما صح فيها من القياس، كما قيل في ذلك باللطف والائتناس:

شَـــوقتنا إلـــىٰ الجِنـــانِ فَزِدنـــا ... في اجتِنـــابِ الـــذُّنوبِ والآثـــامِ

روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأشجار تُنبتُ أفانين الأحاسن، وأزهار ما بينمفتوح العين وَوَسِن، وأطيار ترنمت بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن،(وفيها يقول:)

في رَوضـــةٍ نُصِـــبتْ أغصـــانُها وَغـــدا ... ذَيـــلُ الصَّـــبا بـــينَ مَرفُـــوعٍ ومجـــرورِ

قـــد جُمِّعـــتْ جَمـــعَ تَصْـــحيحٍ جوانِبُهـــا ... والمـــاءُ يُجمـــعُ فيهـــا جمـــعَ تكســـيرِ

والـــرّيحُ قـــد أطلقـــتْ فيـــه العِنـــان بـــه ... والغصـــنُ مـــا بـــينَ تقـــديمٍ وتـــأخيرِ

والـــريح تجـــري رخـــاء فـــوق بحرتهـــا ... وماؤهـــــا مطلـــــق في زي مأســـــور

---

(١) ـ شرح مقامات جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ). ٢٧١وما بعدها .تح. سمير محمود الدروبي. مؤسسة الرسالة. بيروت. بدون، بلبل الروضة. ٢٣ وما بعدها. جلال الدين السيوطي(ت ٩١١هـ). تح. نبيل محمد عبد العزيز أحمد. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨١م.

(٢) ـ المؤمنون. ٥٠ .

والـــريحُ تـــرقُمُ في أمواجِـــهِ شَـــبَكًا والغـــيمُ يرسُـــمُ أنـــواعَ التصـــاويرِ
والمـــاءُ مـــا بـــينَ مَصْـــرُوفٍ ومُمتِنـــعٍ والظـــلُّ مـــا بـــينَ مَمـــدُودٍ ومقصُـــورِ
والنّـرجِسُ الغـضُّ لـم تغضـض نـواظرُه فزهـــرهُ مـــا بـــينَ مـــنفضٍّ ومَـــزْرورِ
كأنّـــهُ ذَهـــبٌ مِـــنْ فـــوقِ أعمـــدةٍ مـــن الزُّمـــرُّدِ في أوراقِ كـــافُورِ

روضةٌ أريضةٌ، عيون أزهارها مَريضةٌ، وأنواع البركات من نهرها مُفيضةٌ، ونوازع الهموم والغموم بها مَغِيضةٌ

بَلـــدٌ أعارَتْـــهُ الحَمامـــةُ طـــوقَها وكَســـاهُ حُلـــــّةَ ريشِـــهِ

روضة هي مجمع البحرين، ومختار يقابل مجمع البدرين، ومِنهاجٌ يسير فيها كلُّفُلكٍ من النَّواعِيرِ ويدور، فهي علىٰ كل الأحوال ذات النُّورين، ومَطلعُ البدرين، (وفيها يقول:)

يـــا حبَّـــذا في الحُسْـــنِ نَـــاعُورةٌ كأنَّهـــا مـــن فَلـــك الشَّـــمسِ
تحمـــي حِمـــىٰ الرّوضـــةِ مـــن مائهـــا وشـــكلُها بالسّـــيفِ والتُـــرسِ

ذات وجهين غير ما يجري فيها بالنقل والتخريج، فأربتْ علىٰ السّبعةِ أوجه بما حوتْه من كل منظر بهيج، لم يفزْ غيرها بحسن إلا وكان لها منه قسمٌ قسيم، ولم تتقابل وجوه المناظر إلا وكان وجهها وسيم، فلا غرو أن كانت ملكة المتنزهات، فإنها أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم

مـــن مـــاتَ فيهـــا وهـــو مَغْفـــورٌ لـــه فمِـــنَ الجِنـــانِ إلـــىٰ جِنـــانٍ يُنْقَـــلُ

إن فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة، ولكل جديد لذة، أو ناظرتها الجزيرة الوسطىٰ قابلتها بالكسر وقالت أنا في مُلازمةِ النيل الفُردةُ البزَّة، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرىٰ أعرضت عن القال والقيل، وقالت أني يُقاس بخرطومي المشتهىٰ زلُّومةُ الفيل، وإن قال التّاج أنا المرفوع علىٰ الرووس قالت أنا عروسة

الحسن، لا سيما في عُرس النيل، والتاج في خدمة العروس، وإن قالت السبعة أوجه قد تعددت منا الوجوه والمناظر، قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر، أما سمعت قول الشاعر:

أرىٰ المُشتهىٰ في روضةِ الحُسنِ قد بَدا ... علىٰ رَصدِ المعشَوقِ فالقَلبُ واجِدُ

لعَمْرك ما السّبعُ الوجُوه إذا بَدتْ ... بمغنيةٍ عن وَجهِهِ وهو واحِدٌ

كأنها بدر والنيل حولها هالة، أو شمس في وسط السماء ليس عليها سحابة أو غلالة، أو وجه دار عليه طَيْلَسَان، أو سرير ملكٍ نُصِبَ في مَيدان، أو قلب جيش له مِصر والجيزة جَنَاحان.

تبرّجت بأنواع الأزاهر البهجة لا بالشيح والقيصُوم، وناداها لسان الربيع: يا روضة سَنَسِمُك بالخُضرة علىٰ الخرطوم.

ونغير الأسلوب ونقول: نثرت السماء علىٰ أغصانها النجوم، وارتُشِف من خُرطُومها زُلالُ الرّيق والرّحيق فلم تحتج في كلا الحالين إلىٰ خرطوم، وقال الشاعر:

وَخَصَّ البحرُ منها كلَّ خُصٍّ ... وعمّ بروضِها الزاهِي أكامَه

فقلتُ وقد سقىٰ الخُرطومَ عَلاّ ... أخرطومٌ بَدَا لي أمْ مُدَامه؟!

كانت دار ملك وخلافة، وسرير سَلطنة ورُتبة إنافة، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قُضاة وحكام، ومقر صُلحاء وعبّاد، ومفر صُوفية وزُهاد، ويكفي في الرد علىٰ المُعارض قول الشيخ عمر بن الفارض:

جِلقٌ جَنةٌ من تاه وَباهىٰ ... بِرُبَاها غيرها لِولا وباها

قالَ غالٍ بَرَدَىٰ كَوْثَرُهَا ... قلتُ غالٍ بَرَداها بِردَاها

وطني مِصرُ وفيها وطري ... ولنفسي مُشْتَهاها مُشْتَهاها

ولعينـــــي غيرهـــــا إن سَـــــكَنتْ  يـــا خليلـــيَّ سَـــلاَهَا مـــا سَـــلاَها

وكم سكن بها من خلفاء وملوك وأمراء، وكُتاب ورؤساء ووزراء، وقراء وأولياء، وفقراء وأغنياء، وأذكياء وأغبياء، وذوىٰ هنات وأتقياء، تلاوة قرآن، وتدريس أفنان، وشعائر وآذان، ونغمات وألحان، وقضاء أوطار، وضربات اوتار، كل نفس بما كسبت رهينة، وعلىٰ ما حمّلت من أمانة دينها امينة، فهذا يسعىٰ في خلاص ذمته، وأداء أمانته، وهذا يوقعه القدر في حبائل خيانته بجنايته، قل كل يعمل علىٰ شاكلته، فكأن لسان الحال يقضي بأن الحريري إنما عناها حيث قال:

بهـــا مـــا شِـــئْتَ مـــنْ دِيـــنٍ ودُنْيـــا  وجيـــــرانٍ تأسَّـــــوْا في المَعـــــاَني
فمَشـــــغوفٌ بآيـــــاتِ المثَـــــاني  وَمَفْتُـــــونٌ برَنّـــــاتِ المَثَـــــانِي
ومُضْـــــطَلِعٌ بتلْخـــــيصِ المَعـــــاني  ومُطّلِـــــعٌ الـــــىٰ تخْلـــــيصِ عـــــانِ
وكـــــمْ مـــــنْ قـــــارِئٍ فيهـــــا وقـــــارٍ  أضَـــــرّا بـــــالجُفونِ وبالجِفـــــانِ
وكـــــمْ مـــــنْ مَعْلَـــــمٍ للعِلـــــمِ فيهـــــا  ونـــــادٍ للنّـــــدىٰ حُلـــــوِ المَجـــــاني
فصِـــلْ إن شِـــئتَ فيهـــا مَـــنْ يُصَـــلّي  وإمّـــا شِـــئتَ فـــاذْنُ مـــنَ الـــدِّنانِ
ودونَـــكَ صُـــحبَةَ الأكيـــاسِ فيهـــا  أوِ الكاســـاتِ مُنطَلِـــقَ العِنـــانِ

هذا يَعُدُّها عَونا علىٰ تقواه، وهذا يعدها للعبه ومَلهاه، هذا يَرعىٰ فيها النجوم، ويناجي فيها الحي القيوم، وهذا يغفل ليله إلىٰ الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم، هذا ينظر إليها بعين الفكرة والتبصّر في عجائب القدرة، وهذا ليس له منه إلا الابتهاج بنضارة الزهرة، هذا يشهد فيها مشاهد شهوده، وهذا يسهد؛ ونوم غيره أفضل من سهوده، وقال الأستاذ سيدي محمد وفا في ديوانه:

رأيـتُ رِيـاضَ القُـدسِ في روضـةِ الرضـىٰ  علـىٰ نيـلِ مصـرَ بـين تلـكَ المَنـاظِرِ
مناظرُهـــا للنـــاظِرين مَشـــارِقٌ  وفيهـــا وجـــوهٌ كالبُـــدورِ البـــوادِرِ
حكـينَ شُموسًـا في السّـحابِ وقـد بـدتْ  وجـــوه الأغـــاني في سُـــتورِ الأعـــاجرِ

وتشـــبِهُ آفـــاق الســـماوات في الـــدجىٰ وفيهـــا مصـــابيحُ النجـــومِ الزواهـــر
وتحكـــي طيـــورًا عاليـــاتٍ رؤُوســـها علـــىٰ النيـــلِ فيهـــا سَـــابِحاتُ الشـــخَائِرِ
ويشـــبِهُ ســـيبُ المـــاءِ فيهـــا صَـــوارِمًا بأيـــدي الهَنـــا سُـــلّتْ لســـلبِ النـــواظر

يؤكل فيها حيوان البرِّ زكيا، وصيد البحر طريا، وثمر الأشجار جنيا، ويشرب فيها الماء من شوائب الأقذار عريا، ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا، فيبرئ من الأسقام عليلا، ويشفىٰ من الأوار غليلا، ساكنها قد وُقي السُّموم والحرور، وأعفىٰ من شعث الكيمان والبرور.

وهي خفضة في رَبْوة، وجمعية في خلوةٍ، ترىٰ المارين في البر والبحر وأنت عنهم في بُعُد، وتشاهد وأنت مُعتزل من كان في انحدارٍ أو صُعُد، وأنت متحصن من الثُّقلاء بقلعة حولها من الماء خنادِق، ومن تمام حسنها تعدّدُ أبواب بيوتها ففيها مَخلَصٌ عند مجيء الطّارق، وكم لله علىٰ ساكنها من منٍّ لا يُحصِي العادُّ ضبطه، وكم تلا عليه لسان النعمة أن اشكروا لله علىٰ ما أولاكم وزادكم في الخلق بسطة.

فإن قيل لها من الناموس شَين، فقل لا بدّ منه لدفع العين، وقد قيل:

يـا ليلـة غـرّدتْ فيهـا البعـوضُ وقـد طـاروا إلـيّ زرافـاتٍ ووحـدَانَا
يصـرعْنَ ذا اللّـبِ حتـىٰ لا حَـرَكَ بـه وهـن أضـعفُ خَلـقِ الله أركانَـا

فإن قيل ويخلُفُه عند انقضائه أذىٰ البراغيث، وذلك إذا البر أغيث، فقل:

لا تكـرهِ البرغـوثَ إن اسـمَهُ بِـرٌّ وغـوثٌ لـك لـو تَـدرِي
فبُّـره مَـصٌّ دَمٍ فَاسـدٍ والغَـوثُ إيقاظُـه لـك في الفجـرِ

ويحيط بأرجائها النيل، وما أدراك ما النيل؟!، سيد الأنهار، والمُسخرُ له جميع مياه الأرض تمده في الزيادة كما ورد في الآثار، أصل منبعه من الجنة، وسمىٰ في

القرآن باسمه دون غيره، ونطقت به السنة، وهو في الجنة نهر العسل، ويرفعه جبريل عند رفع القرآن، ومن لم يعرف فليسل.

وهو الذي كاتبه عمر بن الخطاب لما حمل أهل مصر الإصر، فكتب له بطاقة صدرها "من عبد الله عمر بن الخطاب إلىٰ نيل مصر".

ديـارُ مصـرَ هـي الـدُّنيا وسـاكِنُها ... هـمُ الأنـامُ فقابلهـا بتفضـيلِ

يـا مَـنْ يُبـاهي ببغـداد ودجلتِهـا ... مصـرُ مُقدِّمـةٌ والشـرحُ للنيـلِ

وله أصابع ليس في الأيادي من يطاولها، ومتىٰ رامت عيون الشام أن تفاخره كان لكل عين أصبع منه يقابلها، ولله در القائل:

زادتْ أصـابِعُ نيلِنـا ... وطمـتْ فأكمـدتِ الأعَـادي

وأتـتْ بكـلِّ مَسـرةٍ ... مـا ذي أصـابعَ ذي أيـادي

وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم هو لها يوم عيد، طالعه في برج السُّنبُلة والحوت للمشتري سعيد، وهو يوم الزينة، وما أدراك ما يوم الزينة؟، يوم يحشر له الناس، ويحج فيه إلىٰ المقياس، وتطيب من تخليقه وتحليقه الأنفاس، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو، وفي الحقيقة هو خلعة رضا ولباس، وتُكمد الحساد، وتجتمع الأضداد، فيحصل الصفاء إذا انكدر، والجبر إذا انكسر، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل، ويسحب الماء علىٰ بساط الأرض الذيل، ويركب إليه الملك والجنود، وتعقد له الألوية والبنود، ويكون للناس من مائه ولونه المحمر الورود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وله في كل سنة أجل معدود، قال الشاعر المشهور:

للهِ يَـومُ الوَفـاء والنـاسُ قـد جُمِعُـوا ... كـالرَّوضِ تطفُـو علـىٰ نهْـر أزَاهـرُهُ

وللوَفَـاءِ عَمُـودٌ مـن أصَـابِعِهِ ... مُخلّـقٌ تَمـلأُ الـدُّنيا بَشَـائِرُهُ

## المبحث الأول

### مفتتح المقامة

يظهر للمتلقي من القراءة الأولية للمقامة أن السيوطي يستعرض أمامه مميزات جزيرة الروضة، ويناقش ما يمكن أن ينسب لها من العيوب ويفندها له، بطريقة تغري من يطلع علىٰ المقامة بمحاولة زيارة الجزيرة واغتنام ما فيها من نعم وترف، والسيوطي خلال ذلك ينتقل من فكرة لفكرة، ومن طريقة لطريقة، ومن أسلوب لأسلوب، فيطرق القلوب والعقول من كل باب، ويأتي المتلقي من كل جهة يمكنه الوصول إليه منها، لكنه قبل أن يسير في طريقه ذلك يضع أمام القارئ قاعدة أساس؛ وهي أن الروضة هي خير بقاع الأرض، يبدأ بإثبات ذلك لمصر كلها، وينتقل من ذلك لإثباته لجزيرة الروضة خاصة بأسلوب يشبه أسلوب المناطقة؛ عن طريق استخدام مصطلحاتهم؛ وصورة القياس المنطقي، ويرسخ ذلك في وجدان وعقل السامع بأدلة نقلية وعقلية كما يفعل الفقهاء والأصوليون، ويقدم ذلك كله في قالب طريف وكأنه وصل إليها بعد نظر وتأمل وفحص وبحث، فيجعل الخروج عليه في الاتفاق معه علىٰ هذه القاعدة غير متاح، وبذلك يضع أرضا مشتركة من القناعات بينه وبين المخاطب ينطلقان منها في رحلتهما مع النص لاستكشاف هذه الجزيرة، وكأن ما يأتي بعد ذلك هو تفسير لأسباب تفضيل هذا المكان وكشف لأسرار جماله لا برهان ولا دليل.

ويبدأ بأقوىٰ هذه الأدلة أثرا في وجدان المخاطب المفترض وهو القرآن الكريم، فيقول: (قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [1]، والحقيقة أن المفسرين ذكروا أن المقصود في الآية قد يكون مصر أو دمشق أو

(١) – المؤمنون. ٥٠ .

فلسطين[1]، ويبدو أن السيوطي قد اختار هذه الآية لما فيها من مخاطبة مشاعر النصارىٰ أيضا مع المسلمين، فيتوجه بتأثيره إلىٰ أغلب سكان مصر، وفي الآية أيضا مناسبة لما يأتي بعد ذلك من الثناء علىٰ مصر وأهلها وأرضها ومائها، وفيها كذلك تقرير وتوكيد ما لمصر من جمال أخاذ وطبيعة ساحرة منذ القدم، وفيها مع ذلك كله إشارة إلىٰ قداسة وخصوصية مصر مهبط الوحي، وملجأ عيسىٰ وأمه ـ عليهما السلام ـ ومأوىٰ الفارين من الظلم والاضطهاد وأمانهم.

وأتبع ذلك بقوله: (ونطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر أحسن البقاع، وتضافرت علىٰ ذلك آثار الصحابة والأتباع، وانعقد عليها الإجماع)، مشيرا لما ورد في القرآن الكريم من آيات ذكرت فيها مصر صراحة أو كناية وتلميحا، وما ورد من أحاديث مرفوعة إلىٰ النبي ﷺ ، وما ورد من أقوال الصحابة والتابعين ﷺ [2]، فأسند النطق للكتاب والسنة علىٰ سبيل المجاز العقلي لعلاقة الفاعلية إذ هما منطوق بهما؛ تفخيما وتعظيما لشأن مصر في نفوس السامعين، أو جعل دلالة الكتاب والسنة نطقا علىٰ سبيل الاستعارة للمبالغة في إبراز قوة هذه الأدلة، وذلك بالرغم من أن ما

(١) – ينظر الجامع لأحكام القرآن. ١٢/ ١٢٦وما بعدها. أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تح. أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط٢. ١٩٦٤م. تفسير القرآن العظيم. ٥/ ١٧٦وما بعدها. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ت ٧٧٤ هـ تح. سامي بن محمد السلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. ط٢. ١٩٩٩م.

(٢) – وقد ذكر السيوطي كثيرا من ذلك مفصلا في كتابه حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. ١/ ٥ وما بعدها. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية – عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه – مصر. ط١. ١٩٦٧م.

ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف لم ينص علىٰ هذه الأفضلية في الحقيقة، وأكثر ما ورد في الحديث مما ذكرت فيه مصر أشار إلىٰ أفضلية أهل مصر لا أرضها.

وجعل ما ورد عن الصحابة والتابعين ﷺ من الثناء علىٰ مصر تضافرا مع الكتاب والسنة علىٰ ذلك، وللقارئ الكريم أن يتخيل ما عناه السيوطي بذلك من قوة التأييد لما في أصل معنىٰ المادة من قوة النسج والفتل[١]، وناسب التضافر بذكر الانعقاد بعد ذلك، مع حسن الوقع بالسجع في (البقاع - الأتباع - الإجماع) الذي شمل عبارات الفكرة، والتعميم هنا علىٰ سبيل المبالغة لا الحقيقة العلمية، وذلك بالرغم من الصبغة العلمية التي صبغ السيوطي كلامه بها باستخدامه طريقة الفقهاء والأصوليين في الاستشهاد بالأدلة النقلية من القرآن والآثار والإجماع.

ثم انتقل السيوطي من بيان فضل مصر بعمومها علىٰ سائر البلاد؛ إلىٰ بيان فضل الروضة بخصوصها بالنسبة لمصر[٢]، مع ملاحظة تغير السجع مع الانتقال من الفكرة الأولىٰ للفكرة الثانية، وهو ما سيتبعه السيوطي في أغلب المقامة، فقال: (وشهد الحس بأن الروضة منها كمركز الدائرة فهي لها كالقطب والأساس، وقام النظر علىٰ أنها أنزه بقعة فيها، فأنتج أنها أحسن بقاع الأرض بما صح فيها من القياس)، فقدم كلامه للسامع بأسلوب يشعره بأنه مدعوم بأدلة علمية؛ حسية وعقلية، وللمبالغة في إثبات ذلك جعل الاستدلال شهادة، وأسنده للحس مجازا، وعلق به تشبيه حال الروضة مكانا ومكانة من مصر بمركز الدائرة وهو أهم نقطة فيها وأكثرها تميزا وبه انتظامها، وأردف ذلك بتشبيهها بالقطب والأساس، والأساس معروف أنه مبدأ الشيء وأصله ومعروف أهميته، والقطب من المشترك

---

(١) - لسان العرب (ضفر).

(٢) - وهذا الأصل الذي وضعه سيكون له امتداداته في المقارنات التي سيذكرها بعد ذلك.

اللفظي، وكل معانيه تخدم السياق وتثريه، فهو إما أن يكون مقصودا به قطب الرحىٰ وهو مدارها وسبب وأساس حركتها، وإما أن يقصد به قطب السماء وهو نجم كان يظن قديما أن عليه مدار الفلك كله، وقد يعنىٰ به سيد القوم، أو ملاك الشيء ومداره[1]، فاستخدم تشبيه الجمع ليثبت معناه ويقرره في الأذهان بتعديد المشبه به.

وكأن السيوطي لم يكتف بالدليل الحسي فأيده بالتأمل والتدبر حتىٰ ثبت عنده بالنظر والبحث أنها أنزه بقعة في مصر، واشتقاق أفعل التفضيل (أنزه) هنا من قولهم: نزهت الأرض أي تزينت بالنبات[2]، فهي أحسنها منظرا وأعلاها قيمة.

واعتبر السيوطي أن ما ذكره من الأدلة مقدمات لقياس منطقي وواصل رسم صورته، فذكر النتيجة وصحة القياس مستخدما اصطلاح المناطقة وطريقتهم، فقال: (فأنتج أنها أحسن بقاع الأرض بما صح فيها من القياس)، فرتب هذه الجملة علىٰ ما سبقها بالفاء، وناسب بين (النظر ـ أنتج ـ صحة – القياس)، ووىٰ بـ(القياس) عن مقياس النيل[3] المقام في هذه الجزيرة، وسيكون له ذكر في نهاية المقامة.

وما شكله السيوطي هنا من صورة الاستدلال والقياس إنما هو تمثيل ممتزج باستخدام مصطلحات العلوم والتورية، وإنما فعل ذلك تمليحا لكلامه وجذبا للانتباه من البداية، وللمبالغة في إثبات الفضل لجزيرة الروضة وتقرير ذلك في القلوب، وأيضا علىٰ سبيل الدعاية المضادة لعلم المنطق والاشتغال به، ليري المتبحر فيه كيف أنه باستخدامه لأساليب المنطق غير الحقائق وبدلها، وكأنه يقول

---

(١) – ينظر القاموس المحيط. (قطب).

(٢) ـ ينظر المعجم الوسيط. (نزه).

(٣) – وردت العبارة بلفظ (المقياس) في كتاب بلبل الروضة.٢٣. والأليق بالسياق لفظ(القياس)

ليس بغضي للمنطق وابتعادي عنه؛ ونصحي غيري بعدم الاشتغال به؛ لجهلي به أو عجزي عنه؛ وإنما لما يترتب عليه من تلاعب بالحقائق(١).

ثم أتبع ذلك بتضمين بيت البحتري ونبه علىٰ ذلك بقوله: (كما قيل في ذلك باللطف والائتناس:

شَـــوقتنا إلـــىٰ الجِنـــانِ فَزِدنـــا  في اجتِنـــابِ الـــذُّنوبِ والآثـــامِ(٢)

والناظر في افتتاحية السيوطي للمقامة يجد أساليبها قد شكلت عدة تقنيات دعائية، أولها الأسلوب الديني، الذي بدا واضحا في استشهاده بالآية الكريمة وعرضه الأدلة النقلية، وترتيبها وتقديمها بطريقة الفقهاء، ثم الأسلوب العلمي، حيث تحدث السيوطي بطريقة الفقهاء والأصوليين والمناطقة، واستخدم مصطلحاتهم، وذكر الدائرة ومركزها والقطب والأساس، ولا يخفىٰ تأثير هذين الأسلوبين في النفوس، فالدين والعلم لكل منهما سلطانه علىٰ النفوس وفاعليته في اكتساب ثقة المخاطب، وكلاهما حجة غالبة تأخذ العقول وتتغلغل في القلوب، فكيف إذا اجتمعا؟!، ومن هنا تولد أسلوب آخر؛ هو التضخيم والتهويل، فإن مكانا جمع الحديث عنه الدين والعلم؛ واستدل بهما علىٰ فضله؛ لابد أن يقع في قلب السامع عظم شأنه وشرفه، هذا إلىٰ جانب ما وقع في كلام السيوطي من مبالغات وتغييرات وهو ما يعرف دعائيا بأسلوب التحريف، هذا إلىٰ جانب تأثير تضمين

(١) – ألف السيوطي عدة مؤلفات في النهي عن الاشتغال بالمنطق والتنفير منه، منها ما وصل إلينا مثل كتاب صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، ومنها ما لم يصل إلينا.

(٢) – البيت من قصيدة للبحتري يمدح بها المتوكل ويصف القصر المعروف بالصبيح وقصرا بإزائه يقال له المليح والبركة ومطلعها:

إن طيفـــا يـــزورني في المنـــام  لخلـــي مـــن لـــوعتي وغرامـــي

ديوان البحتري.٣/ ٢٠٠٦. تح. حسن كامل الصيرفي. دار المعارف. مصر. ط٣.

بيت البحتري وما حمله من تشبيه ضمني مما يعد من أسلوب الاستشهاد بالأقوال المأثورة، وأيضا ما أحدثه السجع وتضمين الشعر من موسيقىٰ يمكن أن يدخل تحت الأسلوب الغنائي، وهو ما يستعين به المتكلم ليجعل حديثه أقرب إلىٰ إمكان الحفظ حتىٰ لا ينسىٰ بسهولة.

وبهذا يكون السيوطي قد جمع ستة أساليب دعائية في مفتتح حديثه عن جزيرة الروضة، ستة أساليب من أقوىٰ أساليب الدعاية أثرا في النفوس تولدت من صياغته وأساليبه رغم ما فيها من بساطة وسهولة.

## المبحث الثاني

### وصف الروضة وما حوته

**يقول السيوطي في وصف الروضة وما حوته:**

روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آسن، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن، وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن، وأطيار ترنمت بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن،(وفيها يقول:)

في رَوضةٍ نُصِبتْ أغصانُها وَغدا ... ذَيلُ الصَّبا بينَ مَرفُوعٍ ومجرورِ
قد جُمِّعتْ جَمعَ تَصْحيحٍ جوانِبُها ... والماءُ يُجمعُ فيها جمعَ تكسيرِ
والرّيحُ قد أطلقتْ فيه العِنان به ... والغصنُ ما بينَ تقديمٍ وتأخيرِ
والريح تجري رخاء فوق بحرتها ... وماؤها مطلق في زي مأسور
والريحُ ترقُمُ في أمواجِهِ شَبَكًا ... والغيمُ يرسُمُ أنواعَ التصاويرِ
والماءُ ما بينَ مَصْرُوفٍ ومُمتنِعٍ ... والظلُّ ما بينَ مَمدُودٍ ومقصُورِ
والنّرجِسُ الغضُّ لم تغضض نواظرُه ... فزهرهُ ما بينَ منفضٍّ ومَزْرورِ
كأنّهُ ذَهبٌ مِنْ فوقِ أعمدةٍ ... من الزُّمرُّدِ في أوراقِ كافُورِ

روضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، وأنواع البركات من نهرها مفيضة، ونوازع الهموم والغموم بها مغيضة

بَلدٌ أعارَتْهُ الحَمامةُ طوقَها ... وكَساهُ حُلَّة ريشِهِ الطاووسُ

روضة هي مجمع البحرين، ومختار يقابل مجمع البدرين، ومنهاج يسير فيها كل فلك من النواعير ويدور، فهي علىٰ كل الأحوال ذات النورين، ومطلع البدرين، (وفيها يقول:)

يا حبَّذا في الحُسْنِ نَاعُورةٌ ... كأنَّها من فَلك الشَّمسِ
تحمي حِمىٰ الرّوضةِ من مائها ... وشكلُها بالسّيفِ والتُّرسِ

لما فرغ السيوطي من رصف أدلته وبناء استدلاله علىٰ أن الجزيرة هي خير بقاع الأرض، ووصل إلىٰ نتيجته وأقام حجته، شرع في الإبانة عن أوصاف جزيرة الروضة وما فيها من مظاهر الجمال، فاستأنف كلاما جديدا في وصف الروضة مؤذنا السامع بالانتقال لفكرة جديدة، فقال: (روضة ذات محاسن...)، حيث بنىٰ كلامه في هذه الفكرة بحيث يفتتح الفقرة بكلمة (روضة) ويختمها بتضمين شعري، فهو يؤسس لكلامه بـ(روضة) – مع ما فيها من التذكير باسم الجزيرة – ليبني عليها ما سيذكره من أحوالها وأوصافها، ويختمها بتأييد من أقوال الشعراء، ويجعل لكل منها سجعة مختلفة عن أختها، وبذلك يسلكها جميعا في نظام واحد كأنها جواهر عقد متلونة بينها فواصل تزيدها تحديدا.

وانتقال السيوطي من الفكرة السابقة لهذه الفكرة جاء سلسا، حيث انتهىٰ في الفقرة السابقة إلىٰ تشبيه جزيرة الروضة ضمنيا بالجنة من خلال البيت الذي ضمنه، وفي هذه الفقرة يبدأ بقوله: (روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آسن)، فاقتبس قوله تعالىٰ: ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [1] من الآية التي يصف بها الجنة في سورة محمد، وسار علىٰ نهج القرآن الكريم، وأتىٰ بمجمل فصله بعد ذلك[2]، فقوله: (ذات محاسن) مجمل فصله بما جاء في باقي الفقرة، وفي ذلك تقرير للمعنىٰ بإثباته مرتين في صورتين، كما أن الإجمال يثير التشوق فيدخل التفصيل بعده علىٰ النفوس دخول المأنوس.

---

(١) – محمد. ١٥.

(٢) – ينظر تفسير التحرير والتنوير »تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد«. ٢٦/ ٩٥. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ). الدار التونسية للنشر – تونس. ١٩٨٤م.

وقد بنيت هذه الفقرة علىٰ ما يشبه أن يكون نسقا مكررا ولحنا مرددا، فقد غلب فيها التنكير فأفاد التعظيم في (روضة)، وأفاد مع الجمع التكثير[١] في (محاسن – أنهار – أشجار – أزهار – أطيار)، وقد دلت هذه الجموع (أشجار – أزهار – أطيار) علىٰ الكثرة رغم كونها علىٰ وزن (أفعال) وهو من جموع القلة؛ لأن (أشجار– أزهار) جمع لـ(شجر – زهر) وكلاهما اسم جنس جمعي، و(أطيار) جمع طير وهو جمع طائر[٢]، فكلها جمع لما دل علىٰ جمع، أما (أنهار) فهو الجمع المشهور لـ(نهر)، والواقع أنه نهر واحد يحوط الجزيرة، ويجري ماؤه فيها، لكنه جمعه علىٰ سبيل المبالغة وموافقة النغم.

وقد زاد اتفاق هذه الكلمات في الوزن والتقفية السجع في هذه العبارة قوة في النغم والوقع الموسيقي، وتآزر معه الجناس الذي شاع فيها كلها، حيث جاءت كل فواصل العبارة بينها جناس في أصل الاشتقاق، وربما زاد قوة بين بعض الكلمات نحو (محاسن – أحاسن[٣])، و(آسن – أحاسن)، و(وسن – لسن).

كذلك راعىٰ السيوطي تسلسل الفكرة، وترتيب أجزائها، بحيث تبدو كأنها تتطور بالتدريج أمام السامع، فبدأ بذكر الماء لأنه أساس الزرع والحياة، ثم ذكر الأشجار وإنباتها أغصانا تحمل الأحاسن، وجاء بـ(تنبت) فعلا مضارعا لإفادة أن

---

(١) – الفرق بين التعظيم والتكثير أن التعظيم بحسب ارتفاع الشأن وعلو الطبقة، والتكثير بحسب اعتبار الكمية تحقيقا أو تقديرا، كما في المعدودات والموزونات والمشبهات بهما، المطول في شرح تلخيص المفتاح. ٨٩.

(٢) – ينظر الصحاح في اللغة. (طير).

(٣) – محاسن جمع حسن من الحسن الذي هو ضد القبح، وأحاسن جمع أحسن بمعنىٰ أفضل ولا يشترط فيه الحسن، ينظر لسان العرب (حسن).

ذلك متجدد فيها؛ فهي في نمو وازدياد، ومن الأحاسن الأزهار في مختلف أحوالها وصورها، وأتىٰ بـ(ما) الإبهامية[1] لإفادة التفخيم وتنوع هذه الأزهار[2]، وأبان عن هذا التنوع بما يلحق بالطباق في قوله: (وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن)؛ حيث استعار مفتوح العين لما تفتح من الأزهار واستعار وسن لما لم يتفتح بعد، ومتىٰ تكامل ذلك في مكان أقامت فيه الأطيار وأطربت السامعين بحسن صوتها وترجيعه، وعقد مقارنة ضمنية طريفة بين ترنم الطيور بلغاتها الخاصة وبين لغات فصحاء البشر علىٰ سبيل المبالغة في بيان حسن تأثيرها ووقعها في النفوس، فقال: (وأطيار ترنمت بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن)، واستخدم المضارع (يعجب) لإدهاش السامع باستحضار الصورة، وجمع بين (فصيح – لسن) ليقرر في الأذهان قصده ذلك في البشر خاصة، لما في فصيح من معنىٰ الإبانة وفي لسن من معنىٰ البلاغة مع الإشارة لآلتها[3]، وذكر اللغات والفصاحة مهد لما جاء بعد ذلك من ذكر

(١) – ما الإبهامية: هي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته وزادته شياعا وعموما، معجم القواعد العربية في النحو والتصريف وذيل الإملاء. ٣٩٨. عبد الغني الدقر. دار القلم – دمشق. ط١. ١٩٨٦م.

(٢) – ذكر السيوطي في حاشيته علىٰ تفسير البيضاوي أن مما تفيده (ما) الإبهامية التحقير والتفخيم والنوعية، ينظر نواهد الأبكار وشواهد الأفكار.٢/ ١٥١. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي. تح. محمد كمال علي وآخرين. جامعة أم القرىٰ. كلية الدعوة وأصول الدين. المملكة العربية السعودية. ١٤٢٥هـ.

(٣) – وقد تعرض السيوطي لقضية الترادف في كتاباته، وعرض آراء من أجازوه، وآراء من رفضوه، وآراء من أجازوه إذا حصل من مجموع المترادفين معنىٰ لا يحصل عند انفرادهما، ينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها.١/ ٣١٦ وما بعدها. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. تح. فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية – بيروت.ط١. ١٩٩٨م، والإتقان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. تح. أحمد بن علي. دار الحديث – القاهرة. ط١. ٢٠٠٤م.

واستخدام لمصطلحات علوم اللغة العربية في الأبيات التي ضمنها في نهاية هذه الفقرة وتلاءم معه بشكل لطيف.

وواضح ما بين الألفاظ والعبارات هنا من تناسب وتلاؤم يجعل الخيال ينساب مع الصورة بسلاسة، خاصة مع ترابط العبارة حتىٰ أنه يمكن اعتبارها كلها جملة واحدة، وكأن هذه الصورة قد ارتسمت في ذهن السيوطي دفعة واحدة فصاغها في قالب واحد ليوصلها للسامع علىٰ هذا النحو.

ثم ضمن بعد ذلك أبياتا لصفي الدين الحلي وقد غير ترتيبها[1]، فقال:

| | |
|---|---|
| في رَوضةٍ نُصِبتْ أغصانُها وَغدا | ذَيلُ الصَّبا بينَ مَرفُوعٍ ومجرورِ |
| قد جُمِّعتْ جَمعَ تَصْحيحٍ جوانِبُها | والماءُ يُجمعُ فيها جمعَ تكسيرِ |
| والرّيحُ قد أطلقتْ فيه العِنان به | والغصنُ ما بينَ تقديمٍ وتأخيرِ |
| والريح تجري رخاء فوق بحرتها | وماؤها مطلق في زي مأسور |
| والريحُ ترقُمُ في أمواجِهِ شَبَكًا | والغيمُ يرسُمُ أنواعَ التصاويرِ |

(١) - وأصل الأبيات:

| | |
|---|---|
| والرّيحُ قد أطلقتْ فيه العِنان به | والغصنُ ما بينَ تقديمٍ وتأخيرِ |
| في رَوضةٍ نُصِبتْ أغصانُها وَغدا | ذَيلُ الصَّبا بينَ مَرفُوعٍ ومجرورِ |
| والريح تجري رخاء فوق بحرتها | وماؤها مطلق في زي مأسور |
| والماءُ ما بينَ مَصْرُوفٍ ومُمتِنعِ | والظلُّ ما بينَ مَمدُودٍ ومقصُورِ |
| قد جُمِّعتْ جَمعَ تَصْحيحٍ جوانِبُها | والماءُ يُجمعُ فيها جمعَ تكسيرِ |
| والريحُ ترقُمُ في أمواجِهِ شَبَكًا | والغيمُ يرسُمُ أنواعَ التصاويرِ |
| والنّرجِسُ الغضُّ لم تغضض نواظرُه | فزهرُها بينَ منفضٍّ ومَزْرورِ |
| كأنّهُ ذَهبٌ مِنْ فوقِ أعمدةٍ | من الزُّمرُّدِ في أوراقِ كافُورِ |

ديوان صفي الدين الحلي. ٩٨. تح. حبيب بن إبراهيم بن خالد اللباني العثماني. مطبعة حبيب أفندي خالد - دمشق. ١٣٩٧هـ.

والمـاءُ مـا بـينَ مَصْـرُوفٍ ومُمتنِـعٍ والظـلُّ مـا بـينَ مَمـدُودٍ ومقصُـورِ
والنّـرجِسُ الغـضُّ لـم تغضـض نـواظرُه فزهـرهُ مـا بـينَ مـنفضٍّ ومَـزْرورِ
كأنّـهُ ذَهـبٌ مِـنْ فـوقِ أعمـدةٍ مـن الزُّمـرُّدِ في أوراقِ كـافُورِ

فقدم البيت الذي جاء فيه لفظ الروضة ليكون هو الأساس الذي يبني عليهتضمينه، فيكون بذلك أقرب مناسبة لإسقاط الأبيات علىٰ جزيرة الروضة، وقدم بيت (قد جمعت جمع تصحيح جوانبها) حتىٰ لا يبعد بالضمير في جوانبها عن مرجعه كما فعل صفي الدين الحلي، خاصة وأن السيوطي جمع الأبيات التي تذكر الريح وجمالها وجعلها متتابعة ليصف جمال هواء الجزيرة، وهو ما لم يذكره في الفقرة السابقة، وأظنه لذلك أراد التركيز عليه فجعله متتابعا ليكون أكثر وضوحا، ومع ذلك فلا يستبعد أن يكون الاختلاف في ترتيب الأبيات راجع إلىٰ وجود رواية أخرىٰ للقصيدة وصلت للسيوطي ولم تصلنا.

وعلىٰ كل فالأبيات بذلك ترسم في الأذهان صورة للروضة وما فيها من مظاهر الجمال، فهي ذات أغصان قوية منتصبة ـ كناية عن ما تحويه من يانع الزرع والأشجار – تمر فيها الريح طيبة تشاكس أغصانها وتميلها في مختلف الجهات، وتداعب ماءها برقة تجعل صفحته تتموج وتتكسر وتبدو وكأنما رسمت عليه خطوط شكلت شباكا، ويظللها بديع أشكال السحاب، ومع ما تحويه من ممرات الماء الجاري؛ فيها أيضا البرك والنوافير والأسبلة وغيرها من المياه المحبوسة للاستعمالات المختلفة؛ من شرب وري وزينة وغيرها، وفيها أيضا الزهور النضرة المبهرة ببديع صورها.

وقد حملت الأبيات استعمالا كثيفا لفنون البديع؛ يتناسب مع الصورة الذهنية التي أراد السيوطي إرساءها في الأذهان عن الروضة وما فيها من ألوان النعم والزخرف، حيث وردت فيها مصطلحات علوم اللغة العربية؛ واستخدمت علىٰ

سبيل التورية بشكل كثيف متتابع؛ مثل ذكر النصب مع الرفع والجر، وكذا جمع التصحيح الذي قصد به تمام أطراف الروضة وسلامتها؛ وجمع التكسير الذي قصد به تموج الماء، والتقديم والتأخير وقصد به حركة الغصون، وذكر الرقم والرسم، ووصفه الماء وأحواله بمصروف وممتنع، ووصفه الظل في الجزيرة بأنه ما بين ممدود ومقصور؛ كناية عن تنوع ما تحويه الجزيرة من الزروع والمباني وغيرها طولا، وهذه الألفاظ من حيث المعنىٰ المورىٰ به تعد من التناسب أو مراعاة النظير، ومن حيث المعنىٰ المورىٰ عنه تعد من الطباق، وأيضا نرىٰ الطباق بين (مطلق – مأسور) و(منفض – مزرور)، والجناس بين (الغض – تغضض)، والجناس في أصل الاشتقاق بينها وبين منفض، كما اشتملت علىٰ صور بيانية لطيفة مثل الاستعارات في (ذيل الصبا – الريح قد أطلقت فيه العنان – ماؤها مطلق في زي مأسور – والريح ترقم في أمواجه شبكا – الغيم يرسم أنواع التصاوير– لم تغضض نواظره) والتشبيه الخيالي في قوله عن النرجس: (كأنه ذهب من فوق أعمدة من الزمرد في أوراق كافور).

ثم استأنف السيوطي حديثه عن مميزات الروضة فقال: ( روضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، وأنواع البركات من نهرها مفيضة، ونوازع الهموم والغموم بها مغيضة)، فسلك طريقا قريبا من الطريق الذي سلكه في الفقرة السابقة من الاعتماد علىٰ التنكير والسجع والجناس واحتمالية أن تكون العبارة كلها جملة واحدة متلاحمة الأجزاء، فنكر (روضة أريضة) للتعظيم والتفخيم، وجانس بين اللفظتين في أصل الاشتقاق فأحدث نغما لطيفا أشعر بانتقال مظاهر الجمال وتناميها بينهما، وكذا جانس بين (الهموم – الغموم)، وأيضا (أريضة – مريضة)، و(مريضة – مفيضة – مغيضة) مع ما بينها من السجع فأحدث وقعا قويا في النفوس والأسماع.

كما كرر السيوطي أيضا أسلوب الإجمال والتفصيل، فأجمل في قوله (روضة أريضة)، ثم راح يفصل مظاهر جمالها التي انضوت تحت كلمة أريضة، وأول ما أراد ذكره من ذلك كان جمال ما فيها من الأزهار، لكنني أظن أن جواد السيوطي قد كبا به هنا في تعبيره عن ذلك بقوله: (عيون أزهارها مريضة)، حيث أراد توظيف الصورة القديمة التي استخدمها الشعراء في وصف عيون الحبيبة ليصف بها الأزهار، ففسدت صورته من عدة جهات، منها أن وصف نظرة عين المحبوبة بالمرض - وهو أصل صورته - معيب لما فيه من ذكر المرض ونسبته إليها، وقد فضل عليه وصفها بالوسن[1]، وهذا في وصف النظرة وليس في العين نفسها، ومنها أن إضافة العيون إلىٰ الأزهار إما أن يكون من قبيل الإضافة التشبيهية[2]، فيكون قد شبه الأزهار بالعيون ثم أضاف المشبه به إلىٰ المشبه، كما في قولنا: لجين الماء، ويترتب علىٰ ذلك أن يكون قد وصف العيون - المشبه به ـ بالمرض، فيقيد المشبه

---

(١) - جاء في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني: "عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم إلىٰ وجوه العود

علىٰ أنه تشبيه لا يلحق، ولا يشق غبار صاحبه، ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم؛ فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به، وفضل عليه قول عدي بن الرقاع العاملي:

وكأنها وسط النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم"

العمدة في محاسن الشعر وآدابه.١،٣٠١. أبو علىٰ الحسن بن رشيق القيرواني . تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل. ط٥. ١٩٨١م، وينظر أيضا معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص. ١/ ٣٣٥ وما بعدها. عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد أبو الفتح العباسي. تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. عالم الكتب - بيروت.

(٢) - الإضافة التشبيهية: ما كانت علىٰ تقدير كاف التشبيه وضابطها أن يضاف المشبه به إلىٰ المشبه، جامع الدروس العربية. ٣/ ٢٠٧. مصطفىٰ محمد سليم الغلاييني. المكتبة العصرية. - بيروت. ط٢٨. ١٩٩٣م.

به بهذا الوصف وكأنه أراد تشبيه الأزهار بهذا النوع من العيون خاصة؛ فيلحق بالأزهار هذا الوصف تبعا، وهو ما لا يتصور عاقل أن يكون مقصودا في هذا السياق، وإما أن يكون من قبيل الاستعارة التصريحية علىٰ نحو ما في قولنا: ذهب الأصيل[(١)]، فيكون قد شبه شيئا يخص الأزهار أو بعضا منها بالعيون المريضة ثم استعارها له، ولا أجد في هذا السياق شيئا يحتمل ذلك، وإما أن يكون من قبيل الاستعارة المكنية بحيث نفترض أنه شبه الأزهار بامرأة لها عيون مريضة؛ وحذف المشبه وأتىٰ بشيء من لوازمه وأثبته للمشبه، ومع بعد هذا الافتراض فليس بينهما جامع، لأن المقصود حينئذ يكون ظهور الضعف والتكسر في نظرة العين، وهو ما لا يوجد ولا يمكن أن يتخيل إرادته في الأزهار، هذا إلىٰ جانب أن ذكر المرض لا يناسب مدح الروضة الذي يتطلب أن توصف أزهارها بأنها يانعة زاهية، كما ينافي ما أراده بذكر فيض

(١) – ذهب الأصيل مقصود به صفرة شعاع الشمس وقت الأصيل، فاستعير الذهب للشعاع علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية، ثم أضيف للأصيل لأنه زمانه، أشار إلىٰ ذلك سعد الدين التفتازاني في المطول والمختصر، وذكره العصام والسبكي والدسوقي وابن يعقوب المغربي في أحد قوليه، لكنه أجاز أيضا أن يكون تشبيها أضيف فيه المشبه به (الذهب) إلىٰ المشبه (الأصيل)، وقد شاع هذا الرأي حتىٰ قال به علماء مشهورون كالطاهر بن عاشور وغيره، ومع ذلك فقد بدا لي أن التحليل الأول هو الأصح، ينظر المطول.٣٤٤، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. ٢/ ٢١٣. إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي. تح. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، كتاب شروح التلخيص وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني علىٰ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح بشرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ، دار الهادي ، بيروت لبنان ، ط٤، ١٩٩٢م ٣/ ٤٦٥ وما بعدها، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور. ٣/ ٢٣٠ . جمع. محمد الطاهر الميساوي. دار النفائس للنشر والتوزيع – الأردن. ط١. ٢٠١٥م، علم البيان. ٨١. عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان. ١٩٨٢م.

البركات وغيض الهموم والغموم؛ وما أضفاه صوت الضاد في الفاصلة من قوة وفخامة علىٰ العبارة.

ثم بين أن ما في هذه الجزيرة من نعم قد زاد ونما، وغشاه فيض من البركات بسبب نهر النيل بقوله: (وأنواع البركات من نهرها مفيضة)، فجعل البركات فيها متنوعة متعددة، وقدم الجار والمجرور ليوجه اهتمام السامع إلىٰ فضل النيل عليها؛ وقد تآزر ذلك مع الكناية عن النيل بـ(نهرها)؛ حيث أضاف النهر لضمير الروضة تشريفا لها، وكأنما آثرها النيل – هذا النهر المبارك – بإفاضة الخير والبركات عليها حتىٰ صار لها ونسب إليها، وقد زاد المعنىٰ تمكينا في النفوس بحسن المناسبة في ذكر النهر مع الفيضان.

وقابل بين هذه الجملة وجملة: (ونوازع الهموم والغموم منها مغيضة)، فأبرز ما فيها من عظيم النعمة، فزيادة علىٰ ما بها من فيض البركات خلت من المنغصات، وكفىٰ بذلك نعمة، وجمع بين الهموم والغموم[1] ليحيط بأنواع المنغصات، مع حسن الوقع بالجناس المردد، وقدم الجار والمجرور (منها) علىٰ (مغيضة) ليفيد قصر ذلك عليها دون غيرها من أراضي الدنيا، فهي الجنة المنشودة التي يهفو القلب إلىٰ الإقامة بها، فيها المنافع مجتلبة والمضار مجتنبة، والمعروف أن دفع المضار مقدم علىٰ جلب المنافع، والتخلية قبل التحلية، لكن السيوطي عكس ذلك في ترتيب الجملتين لتبدو الجملة الأولىٰ كمقدمة يبني عليها الثانية، فكأن فيض النعم

(١) – مما ورد في الفرق بين الهم والغم: "أن الهم هو الفكر في إزالة المكروه واجتلاب المحبوب، وليس هو من الغم في شيء، ألا ترىٰ أنك تقول لصاحبك أهتم بحاجتي ولا يصح أن تقول أغتم بها، والغم معنىٰ ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر قد كان أو توقع ضرر يكون أو يتوهمه"، الفروق اللغوية. ٢٦٦ وما بعدها. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيىٰ بن مهران العسكري. تح. محمد إبراهيم سليم. دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر

والبركات المنساب من نهرها قد غسل الهموم والغموم حتىٰ غاضت، ولم يعطفها بالفاء لتكون كالنعمة الأولىٰ رأسا برأس، ثم ضمن كلامه البيت القائل:

بَلــدٌ أعارَتْــهُ الحَمامــةُ طوقَهــا وكَســاَهُ حُلَّــة ريشِــهِ الطــاووسُ[1]

وفي البيت يأخذ الشاعر من الحمامة طوقها ومن الطاووس جمال ريشه ويلقيهما علىٰ البلد التي يصفها علىٰ سبيل الاستعارة التمثيلية، بل جعل الحمامة والطاووس يفعلان ذلك باختيارهما طوعا، والسيوطي بهذا التضمين يصور تطويق النيل لجزيرة الروضة وما تحويه من طبيعة خلابة تأخذ العقول والقلوب، كما أن في هذا التضمين إبراز لما خصت به الروضة من الجمال والمكانة المتميزة، وذلك لأن الحمامة ما كانت لتخلع طوقها الذي يقال إنها استجعلته من نوح عليه السلام[2] إلا لعزيز، وكذا ما كان الطاووس ليكسو ححلة ريشه – وهو مناط عزه وسبب خيلائه – إلا

(١) – نسب هذا البيت لكل من ابن اللبانة الداني، وابن قلاقس الاسكندري، وابن حمديس الصقلي، ووجدته في ديوان كل منهم، ديوان ابن اللبانة الداني. ٧٦. تح. محمد مجيد السعيد. دار الراية للنشر والتوزيع. عمان – الأردن. ط٢. ٢٠٠٨م، ديوان ابن قلاقس. ٥٧ . راجعه وضبطه خليل مطران. مطبعة الجوانب – مصر. ١٩٠٥م. ديوان عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد الصقلي. ٤٨٨. طبعه وصححه . جلستينو سكيابارللي. روما – إيطاليا. ١٨٩٧م.

(٢) – يقال: إن نوحا صلىٰ الله عليه وسلم لما كان فىٰ السفينة بعث الغراب ليكشف له هل ظهر من الأرض موضع، فوقع علىٰ جيفة فلم يرجع إليه؛ فبعث بالحمامة، فاستجعلت علىٰ نوح الطوق الذىٰ في عنقها فجعل لها ذلك جعلا، نهاية الأرب في فنون الأدب. ١٠/ ٢٧٧. أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة. ط١. ١٤٢٣هـ.

لبديع، وفي اختيار الحمامة مع الطاووس هنا مراعاة نظير من جهة كونهما طائرين ومن جهة أن ما أهدياه لتلك البلد هو أعز ما لهما[1].

ثم استأنف الكلام وبدأ في استعراض ما حوته جزيرة الروضة من عجائب زمانه من متنزهات وبساتين ومنشآت، وغير ذلك من مظاهر العمران والتمدن في ذلك العصر، كما أشار لبعض الشخصيات المشهورة واستخدمها في ترويجه لأمر الجزيرة، حيث قال: (روضة هي مجمع البحرين، ومختار يقابل مطلع البدرين، ومنهاج يسير فيها كل فلك من النواعير ويدور، فهي علىٰ كل الأحوال ذات النورين)

فبدا وكأنه يعرف بالروضة فقال: (روضة هي مجمع البحرين) حيث شبه نقطة التقاء فرعي النيل الشرقي والغربي عند أطرافها بمجمع البحرين المذكور في قصة موسىٰ عليه السلام [2]، ثم استعاره لها، ليوظف خصوصية المكان في تصوير جمال الروضة، ويترك بذلك أثرا نفسيا قويا لدىٰ المتلقي.

ثم استخدم (مختار) اسم مفعول من الاختيار ليوري به عن بستان (المختار) الذي أنشأه محمد بن طغج الإخشيدي، واتخذه منتزها له وكان يفاخر به أهل

---

(١) – ومن حسن المناسبة في استعارة ريش الطاووس لجمال النبات وتلونه ما يقال من أن الطاووس يلقي ريشه في زمن الخريف إذا بدأ أول ورق الشجر يسقط. وإذا بدأ الشجر يكتسي ورقا. بدأ الطاووس فاكتسىٰ ريشا، ينظر الحيوان . ٣/ ١٨٣ .لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تح. عبد السلام هارون. شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط٢. ١٩٦٢م.

(٢) – قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الكهف:٦٠].

العراق، وظل منتزها لحكام مصر وملوكها من بعده[١]، أما (مطلع البدرين) بمعنىٰ ظهور بدرين فقد ورىٰ به عن عجيبتين، الأولىٰ: بستان الروضة الذي أنشأه بدر الدين الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وحجره لنفسه وللخلفاء، وسميت الجزيرة كلها بعد ذلك باسمه[٢]، والثانية: قلعة الروضة التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ وكان فيها من عجائب البناء والبساتين والمتنزهات وغريب الحيوان والوحش ما لا يحيط به الوصف[٣]، وجمعهما – أي بدر الدين ونجم الدين – بلفظ البدرين علىٰ سبيل التغليب، ومطلعهما أي مكان طلوعهما أي خروجهما للتنزه والراحة، والجملة أقرب إلىٰ الإلغاز حتىٰ لقد غاب عن محقق كتاب بلبل الروضة وصاحب كتاب شرح مقامات السيوطي معناها، وأظن أن السيوطي قصد هذا الإلغاز؛ ولكنه لم يكن في زمانه بهذا الغموض لاشتهار هذه الأماكن بأسمائها وأسماء أصحابها في وقته.

ولما ذكر هذه البساتين ذكر مسير الماء في الجزيرة واستخدام السواقي لرفعها إليها، فعبر عن اضطراب الماء لتدفقه بسبب كثرة النواعير وقوتها بقوله: (ومنهاج يسير فيها كل فلك من النواعير ويدور)، فاستخدم جناس القلب (كل فلك) مع دلالة الكلمة نفسها[٤] ليوحي بهذا التموج، و(من) إما أن تكون للسببية أي بسبب النواعير؛ أو لابتداء الغاية؛ أي يسير ويدور في الجزيرة من عند النواعير، وفي ذكره النواعير تلميح لما اختصت به الروضة من وجود ناعورة عدت في زمانها من

(١) – ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣١٨ وما بعدها. أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١. ١٤١٨هـ، ولا يزال إلىٰ اليوم بجزيرة الروضة شارع اسمه المختار نسبة لهذا البستان.

(٢) – أي باسم بستان الروضة، ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣١٩.

(٣) – ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣٢١ وما بعدها.

(٤) – الفَلَكُ، محرَّكةً: مَدارُ النُّجومِ، ج: أفْلاكٌ وفُلُكٌ، بضمتين، والفلك من كلِّ شيءٍ: مُسْتَدارُه ومُعْظَمُه، ومَوْجُ البَحْرِ المُضْطَرِبُ، والماءُ الذي حَرَّكَتْهُ الريحُ، القاموس المحيط. (فلك).

عجائب المخترعات وغرائبها[1]، ولم يكتف بسير الماء وكونه فلكا بل جعله يدور في أرجاء الجزيرة ليصل إلىٰ كل ساكنيها - وهذا أمر معني به في ذلك العصر -، وبذلك يزيد مناظرها جمالا، ويجعل سكناها أكثر راحة.

ثم أطلق عليها اسما آخر بقوله: (فهي علىٰ كل الأحوال ذات النورين)، والمقصود بالنورين إما ما يكون من انعكاس أضوائها علىٰ المياه فيها ومن حولها؛ فهو كناية عن حسن عمارتها، وإما أن يكون إشارة لما كان يقال عن تلألؤ أبراج قلعتها وسورها[2]، فهو تلميح لما كانت عليه فيه إدهاش للسامع، والاسم مأخوذ من لقب عثمان ﷺ ، ففي التسمية به تكريم وتشريف لجزيرة الروضة وزيادة ترغيب فيها؛ حيث أشعر بأنها جمعت من الفضل ما لم يتح لغيرها كما جمع عثمان ﷺ من الفضل ما لم يحظ به غيره بزواجه من ابنتي الرسول ﷺ .

ثم أنهىٰ الفقرة بتضمين بيتي ابن نباتة المصري[3]:

يـــا حبَّـــذا في الحُسْـــنِ نَـــاعُورةٌ كأَنَّهـــا مـــن فَلـــك الشَّـــمسِ

تحمـــي حِمـــىٰ الرّوضـــةِ مـــن مائهـــا وشـــكلُها بالسّـــيفِ والتُـــرسِ

فأكمل ما ابتدأه من مدح الجزيرة بكثرة الماء بأن امتدح ما فيها من النواعير، ولكي يسقط البيتين علىٰ جزيرة الروضة غير قول ابن نباتة (حمىٰ الروضات) تغييرا يسيرا فقال: (حمىٰ الروضة) بالإفراد بدلا من الجمع، وقد مكن مدحه لهذه الناعورة

(١) - فقد كانت تدور بحمار ينقل قدمه من غير أن يتحرك من مكانه، وكان يدور بدورانها طاحونة ركبت عليها، ومن غرابة ذلك حينئذ أن كان الناس يذهبون إليها ليشاهدوها، ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٧٤ وما بعدها. محمد الششتاوي. الآفاق العربية. القاهرة. ط١. ١٩٩٩م.

(٢) - ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣٢٢ وما بعدها.

(٣) - ديوان ابن نباتة المصري ٢٦٢. جمال الدين بن نباتة المصري الفاروقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان. بدون.

في النفوس من عدة جهات، حيث جاء بـ(يا)[١] قبل حبذا ليلفت انتباه السامع، واستعمل (حبذا) لما فيها من زيادة علىٰ (نعم) من حيث إنها تفيد أن الممدوح بها محبوب وقريب من النفس[٢]، وزاد المتلقي تشوقا لمعرفة المخصوص بالمدح المبهم في (ذا)[٣] بأن قدم الحال[٤] (في الحسن) علي (ناعورة)، ونكر (ناعورة) تعظيما لشأنها، ثم زادها تفخيما بالتشبيه في قوله: (كأنها من فلك الشمس)، ثم انتقل إلىٰ الاستعارة التمثيلية في البيت الثاني فجعلها في إمدادها الجزيرة بالماء ناصرة ومؤيدة لها، تقوم عليها بالسيف والترس، فمثل بهما شكلها المستدير واستطالة

(١) – قيل هي حرف تنبيه، وقيل إنها حرف نداء والمنادىٰ محذوف والتقدير يا قوم مثلا، وقيل بل تركبت حب مع ذا وصارت اسما فدخل عليها حرف النداء، ينظر شرح الإمام الفارضي علىٰ ألفية ابن مالك. ٣/ ٣٢١. العلامة شمس الدين محمد الفارضي. تح. محمد مصطفىٰ الخطيب. دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت. ط١. ٢٠١٨م، اللباب في علل البناء والإعراب . ١/ ١٨٨. أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين. تح. د.عبد الإله النبهان. الناشر: دار الفكر – دمشق. ط١. ١٩٩٥م.

(٢) – حتىٰ قيل إنها ليست للمدح في أصل الوضع، وإنما وضعت للمبالغة في الحب، ينظر التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. ١٠/ ١٥٢. أبو حيان الأندلسي. تح. حسن هنداوي. دار كنوز إشبيليا – الرياض. ط١. ١٩٩٧م.

(٣) – (ذا) هنا اسم مبهم ولذا جاز تفسيره بالنكرة، ويفسره المخصوص بالمدح بعده، فيحصل في هذا التركيب الإبهام والإيضاح، ينظر شرح المفصل. ٤/ ٤٠٨، ٤/ ٤١٠. يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي أبو البقاء موفق الدين الأسدي الموصلي المعروف بابن يعيش وبابن الصانع. تق. إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١. ٢٠٠١م.

(٤) – اختلف في حكم تقديم الحال علىٰ المخصوص بالمدح بـ(حبذا) فقيل جائز ، وقيل واجب، ينظر التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. ١٠/ ١٦٨.

الماء ولمعانه وتحركه في جهات مختلفة، مع ما في ذلك من طرافة الصورة وحسن التناسب بين أجزائها.

وبذلك تشكلت من أساليب السيوطي عدة تقنيات دعائية، فتكرار السجع متآزرا مع الجناس والتضمين كان أقرب للأسلوب الغنائي بما وفره من نغم مطرب ووقع لطيف جعل كلماته أقرب للولوج إلىٰ عقل وقلب السامع، ومن ثم أقرب للحفظ والبقاء، هذا إلىٰ جانب أسلوب التكرار، وخاصة تكرار لفظ (روضة) الذي شكل شعارا يميز الجزيرة، وتعدد التضمينات شكل أسلوب الاستشهاد بالأقوال المأثورة، كما أن ما تحدث عنه من مظاهر الجمال في جزيرة الروضة عمل علىٰ رسم صورة ذهنية مثلىٰ لها في عقل المتلقي، ووضع لها نمطا خاصا تمتاز به عن سائر الجزر، خاصة مع تكرار نمط الكلام وأساليبه.

كذلك جاء الأسلوب الديني من خلال اقتباس جزء الآية: ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴾ [سورة محمد:١٥]، وسياقها وربطها بسياق الآية نفسها؛ مع ما لها من قداسة وامتدادات نفسية خاصة في وجدان السامع، وكذلك في تصويرها بأنها (مجمع البحرين – ذات النورين)، كما اجتمع أسلوب الاختيار مع أسلوب التحريف في طريقة عرضه لأبيات صفي الدين الحلي، حيث غير ترتيبها وأعاد تشكيلها لتخدم مراده.

ومن تقنيات الدعاية التي ظهرت بوضوح في هذا الجزء من المقامة أسلوب التضخيم والتهويل، وقد تحقق في عدة مواضع من خلال الاستعارات والتشبيهات والمقابلة والطباق والتورية والاقتباس وغير ذلك كما سبقت الإشارة إليه، وفي التلميح لقصتي الحمامة والطاووس في البيت المضمن (بلد أعارته الحمامة...)

استعمال لأسلوب الأساطير الدينية والتاريخية، كما أن فيه مع ما قبله إشاعة لروح مرحة محببة شكلت أسلوب النكتة (الطرفة).

والتلميح إلىٰ الحقائق الجغرافية والتاريخية والناعورة العجيبة في الجزيرة مع استخدام مصطلحات العلوم؛ كل ذلك ألقىٰ علىٰ الكلام صبغة الأسلوب العلمي، ويدخل في أسلوب تسمية الأشياء بغير أسمائها ما أطلقه علىٰ الجزيرة من نحو: (مجمع البحرين – مطلع البدرين – ذات النورين)، وذلك مع ما قدمه من الاستفادة بذكر الشخصيات اللامعة وحب الاقتداء بهم.

## المبحث الثالث

### منزلة الروضة ومكانتها مما حولها

**يقول السيوطي:**

ذات وجهين غير ما يجري فيها بالنقل والتخريج، فأربتْ علىٰ السّبعةِ أوجه بما حوتْه من كل منظر بهيج، لم يفزْ غيرها بحسن إلا وكان لها منه قسمٌ قسيم، ولم تتقابل وجوه المناظر إلا وكان وجهها وسيم، فلا غرو أن كانت ملكة المتنزهات، فإنها أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم

مـن مـاتَ فيهـا وهـو مَغْفـورٌ لـه فمِـنَ الجِنـانِ إلـىٰ جِنـانٍ يُنْقَـلُ

إن فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة، ولكل جديد لذة، أو ناظرتها الجزيرة الوسطىٰ قابلتها بالكسر وقالت أنا في مُلازمةِ النيل الفُردةُ البزَّة، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرىٰ أعرضت عن القال والقيل، وقالت أني يُقاس بخرطومي المشتهىٰ زلُّومةُ الفيل، وإن قال التّاج أنا المرفوع علىٰ الرووس قالت أنا عروسة الحسن، لا سيما في عُرس النيل، والتاج في خدمة العروس، وإن قالت السبعة أوجه قد تعددت منا الوجوه والمناظر، قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر، أما سمعت قول الشاعر:

أرىٰ المُشتهىٰ في روضةِ الحُسنِ قد بَدا علـىٰ رَصـدِ المعشَـوقِ فالقَلـبُ واجـدُ

لعَمْـرك مـا السّـبعُ الوجُـوه إذا بَـدتْ بمغنيـةٍ عـن وَجهِـهِ وهـو واحِـدٌ

كأنها بدر والنيل حولها هالة، أو شمس في وسط السماء ليس عليها سحابة أو غلالة، أو وجه دار عليه طَيْلَسَان، أو سرير ملكٍ نُصِبَ في مَيدان، أو قلب جيش له مِصر والجيزة جَنَاحان.

تبرّجت بأنواع الأزاهر البهجة لا بالشيح والقيصُوم، وناداها لسان الربيع: يا روضة سَنَسِمُك بالخُضرة علىٰ الخرطوم.

ونغير الأسلوب ونقول: نثرت السماء علىٰ أغصانها النجوم، وارتُشِف من خُرطُومها زُلالُ الرّيق والرّحيق فلم تحتج في كلا الحالين إلىٰ خرطوم، وقال الشاعر:

وَخَـصَّ البحـرُ منهـا كـلَّ خُـصٍّ وعـمّ بروضِـها الزاهِـي أكامَـه
فقلـتُ وقـد سـقىٰ الخُرطـومَ عَـلاّ أخرطـومٌ بَـدَا لـي أمْ مُدَامـه؟!

ولما حصل في هذه الجزيرة اجتماع صنوف النعم المؤملة في البر والبحر ومظاهر الجمال وألوانه قال: (ذات وجهين غير ما يجري فيها بالنقل والتخريج)، فاستعمل التورية بمصطلحات العلوم[١] ليعبر عن كونها مكفية المؤونة؛ وأن فضلها يزيد بما يتم فيها من نقل الخيرات وتخريجها، فجعل ذكر امتلائها بالنعم وفيضها بها تكأة لما سيأتي بعد ذلك من تفضيلها علىٰ غيرها من المتنزهات فيما سيجريه من موازنات، ولذا عطف ما بعدها عليها بالفاء، فأحسن التخلص والخروج من وصف الجزيرة في الفكرة السابقة إلىٰ إجراء الموازنات في الفكرة التالية.

وفي قوله: (فأربت علىٰ السبعة أوجه بما حوته من كل منظر بهيج) راعىٰ العدد سبعة الموجود في العلم (السبعة أوجه)[٢]، وجعل سبب زيادتها عليها ما حوته من

(١) – النقل والتخريج في علم الفقه وعلم أصول الفقه: "بمعنىٰ أن يصدر من المجتهد حكم علىٰ مسألة، ثم يصدر منه حكم يخالفه علىٰ مسألة أخرىٰ تشبهها، ولم يظهر ما يصلح موجبا للتفريق بينهما في الحكم، فيأتي الأصحاب فينقلون حكم كل مسألة إلىٰ الأخرىٰ، فيصبح في كل مسألة قولان: منصوص، ومخرج"، معجم مصطلحات العلوم الشرعية. ١٧١٨ . مجموعة من المؤلفين. مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. الرياض. ط٢. ٢٠١٧م.

(٢) – منظرة (قصر) السبعة وجوه: أصل اسمها الخمس وجوه لكن العامة حرفته فقالت السبعة وجوه تيمنا بالرقم سبعة، أنشأها الأفضل بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، كانت من أعظم وأهم متنزهات القاهرة قديما لما كان لبساتينها من جمال يقصر عنه الوصف، ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٢/ ٤٢١، وموقعها الآن حي الشرابية بالقاهرة، ينظر متنزهات القاهرة في العصر المملوكي والعثماني. ٢٣٥.

كل منظر بهيج؛ ليلفت الأذهان إلىٰ وجه المقارنة بينهما وإلىٰ حقيقة سبب سبقها، وأنه ما حوته من مناظر بديعة تسر النفوس وليس بالعدد والتعدد، وهو ما يعد لمزا خفيا لبستان السبعة أوجه.

وليدعم مقارنته بالأدلة التي تؤكد تفوق جزيرة الروضة علىٰ غيرها من المتنزهات استعان بتكثيف أساليب القصر، فقال: (لم يفز غيرها بحسن إلا وكان لها منه قسم قسيم)، حيث قصر صاحب الحال (حسن) علىٰ الحال (وكان لها منه قسم قسيم)[1] قصر موصوف علىٰ صفة، وفي جملة الحال أيضا قدم المسند ليفيد القصر، فحصل أنه لا يكون لغيرها حسن إلا كان للروضة وحدها منه الحظ الوفير، وفي هذا كناية تؤكد غلبة جزيرة الروضة علىٰ غيرها في هذا الأمر وتفوقها الذي لا يلحق، فإنها متىٰ نالت هذا النصيب من حسن كل ذي حسن ثبتت لها كل ألوان المحاسن، وهو ما لا يتوفر لغيرها، ولأنه اعتبر أن في الأمر منازعة ومنافسة بالفعل اعتمد بالأساس علىٰ طريق النفي والاستثناء في القصر – وكرره بعد ذلك – وكأنما يخاطب من ينكر كلامه أو يشكك فيه[2]، وبذلك وضع هذه القاعدة علىٰ هذا الوجه من التأكيد من أول كلامه في مقارنة الروضة وموازنتها بغيرها، ثم عضد كلامه بوضع أساس آخر لتفوقها وتميزها بطريق القصر أيضا مصحوبا بتكثيف لاستعمال

(١) – الأصل أن الجمل بعد النكرات صفات، و(حسن) هنا نكرة، فعليه تكون الجملة صفة، لكن إذا فصل بين الموصوف وصفته بـ(إلا) أو (الواو) – وقد اجتمعا هنا – امتنعت الوصفية ووجبت الحالية، ينظر مغني اللبيب عن شرح الأعاريب. ٢/ ٤٣٢. للإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المصري. تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت. ١٩٨٧م.

(٢) – ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني من الفروق بين طريق النفي والاستثناء وطريق (إنما) في القصر أن (إنما) تأتي فيما لا يدفع في صحته، وأن طريق النفي والاستثناء يكون فيما ينكره المخاطب أو يشك فيه، ينظر دلائل الإعجاز . ٢٣٠ وما بعدها. عبد القاهر الجرجاني ـ قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مكتبة الأسرة ،٢٠٠٠م.

ألوان البديع في قوله: (ولم تتقابل وجوه المناظر إلا وكان وجهها وسيم)، حيث جاءت المشاكلة لكلمة أوجه السابقة في (وجوه)؛ التي استعارها السيوطي للمناظر المتميزة من قولهم (وجوه القوم) أي ساداتهم، فأسس بذلك لما سيلقيه عليها كلها بعد ذلك من التشخيص أو كما يسميه د.محمد أبو موسىٰ التأنيس[١]، وجانس بين (منظر) و(مناظر) جمع (منظرة) أي قصور[٢]، وجانس بين وجوه بالمعنىٰ السابق ذكره وبين (وجهها) أي حالها وشكلها، وجمع بين السجع والجناس في (قسيم – وسيم) مع ما في (وسيم) من تقوية التورية في (قسيم)، وبذلك جمع للروضة جمال الطبيعة وجمال البناء والعمارة، فحازت السبق في كل.

ثم ذكر مفاجأته التي رتب لها هذه الفقرة فقال: (فلا غرو أن كانت ملكة المتنزهات)، فاستعار لها هذه الصورة العجيبة التي أحدث بها مفاجأة مزلزلة للخصوم، وشكل مفارقة لطيفة ونكتة طريفة بأن نفىٰ وجود العجب في ذلك أصلا، وكأنما اعتبره مترتبا ترتبا منطقيا علىٰ ما ذكره قبل ذلك، ولذا عطفها علىٰ ما قبلها بالفاء، ثم أتىٰ بتعليل حسن لصورته يزيدها قوة وتمكنا في النفوس ، وأيده بالاقتباس في قوله: (فإنها أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم)[٣]، فدعم صورته

---

(١) – ينظر دراسة في البلاغة والشعر. ٩٦. محمد محمد أبو موسىٰ. م وهبة. القاهرة. ط١. ١٩٩١م.

(٢) – هي قصور كانت تقام علىٰ أحسن ما يكون من العمارة والزخرف، وتجهز بأفخر المفروشات والأثاث، وتشرف علىٰ البساتين والنيل وغيرها من المشاهد المهمة، منها الكبير ومنها الصغير ، وكانت تستخدم للتنزه والاحتفالات، وقد سمح الفاطميون للعامة بالتنزه في بعضها ليستميلوا الناس لهم ولمذهبهم، ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٢٢٩ وما بعدها.

(٣) – مقتبس من مما أتىٰ علىٰ لسان الهدهد عن بلقيس ملكة سبأ في سورة النمل ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [سورة النمل:٢٣].

وادعاءه بالحجة والدليل، وربط ملكها في عالم المتنزهات بملك بلقيس في عالم البشر وقرنهما معا في أذهان السامعين.

ثم أكد علىٰ انفرادها بجمال لا مثيل له بقوله: (من مات فيها وهو مغفور له فمن الجنان إلىٰ جنان ينقل)[1]، فجعلها جنة في الحياة الدنيا تقابل جنة الحياة الآخرة، فشبهها ضمنيا بجنة الآخرة تشريفا وتعظيما لها، لكن تعريف الجنان الأولىٰ مع تنكير الثانية أوقع إشكالا في المعنىٰ مع شيوع القول بأن المعرفة إذا تكررت نكرة كان الثاني عين الأول، وقد رد هذا القول كثير من النحاة والبلاغيين، ورأوا أن اعتبار كون الثاني هو عين الأول أو غيره محكوم بدلالة السياق والقرائن[2]، والسياق هنا لا يحتمل الاتحاد، وإنما يقتضي التغاير.

وبذلك يكون قد غرس في العقول ما يعزز جانب جزيرة الروضة ويرجح كفتها، ولذا انتقل من المقارنات الضمنية الخفية إلىٰ مفاخرات ومناظرات صريحة، واكتفىٰ فيها بدور الراوي الخارجي وأسند بطولتها لجزيرة الروضة نفسها، فجعل لها شخصية مستقلة، ولسانا تعبر به عن نفسها وحالها، فصالت وجالت بين منافسيها حتىٰ دحضت حججهم كلهم واستأثرت بالفضل والرئاسة لنفسها، ولذلك اعتمد علىٰ ضمير التكلم في ردود الروضة علىٰ منافسيها، مما أحدث تجليا واضحا لذاتها في هذا الحوار، فدعم فكرة التشخص بشخصية مستقلة عن الراوي،

(١) – وردت هذه الجملة في (بلبل الروضة) علىٰ هيئة النثر، وإن كانت هي في الحقيقة علىٰ وزن بيت من بحر الكامل، ولم ينبه قبلها السيوطي إلىٰ التضمين، ولم يعثر عليها محقق المقامات في شعر الشعراء، ولم أعثر عليها كذلك، ولذا فالراجح عندي أنها من كلام السيوطي نفسه، ينظر بلبل الروضة. ٢٧، وشرح مقامات جلال الدين السيوطي. ٢٧٦.

(٢) – ينظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص. ١/ ٣٥٦ وما بعدها، مغني اللبيب عن شروح الأعاريب. ٢/ ٦٥٦ وما بعدها.

كما ساعد علىٰ إظهارها بمظهر الواثق بقدراته المتمكن لديه أدلة تفوقه وتميزه، فكأنما هي ليست بحاجة لمن ينافح عنها.

**يقول السيوطي:** (إن فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة، ولكل جديد لذة، أو ناظرتها الجزيرة الوسطىٰ قابلتها بالكسر وقالت أنا في ملازمة النيل الفردة البزة، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرىٰ أعرضت عن القال والقيل ، وقالت أني يقاس بخرطومي المشتهىٰ زلومة الفيل، وإن قال التاج أنا المرفوع علىٰ الرووس قالت أنا عروسة الحسن، لا سيما في عرس النيل، والتاج في خدمة العروس، وإن قالت السبعة أوجه قد تعددت منا الوجوه والمناظر قالت رب واحد كألف أو يزيد عند المناظر)[١].

تظهر أيضا دقة اختيار واستعمال السيوطي للكلمات والتراكيب بشكل واضح هنا من عدة نواح، فنراه يسند المفاخرة للفسطاط التي كان يسميها العامة (مصر القديمة أو العتيقة)[٢]؛ ناظرا لما يدل عليه الفخر من عظم وقدم حتىٰ قيل عنه أنه (عد القديم)[٣]؛ ففيها تناسب وائتلاف، مع التورية في (القديمة)، ونجده يسند المناظرة للجزيرة الوسطىٰ التي تناظر جزيرة الروضة – بمعنىٰ ان كلا منهما ترىٰ الأخرىٰ – لقربهما من بعضهما جغرافيا في مجرىٰ النيل ففيها تورية، وكذلك يختار للجزيرة الكبرىٰ التطاول لما لها من شكل طولي يظهر بوضوح علىٰ الخريطة، وهو

(١) – احتجت لإيراد هذا الجزء كله دفعة واحدة لأن تحليله سيحتاج المقارنة بين أجزائه أحيانا.

(٢) – وما زالت هذه المنطقة معروفة بهذا الاسم حتىٰ الآن، ينظر مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ٣/ ٤٢٣. أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين. المجمع الثقافي، أبو ظبي. ط١. ١٤٢٣هـ.

(٣) – مقاييس اللغة. (فخر).

في ترتيبه يجمع بين مصر القديمة والجزيرة الوسطىٰ لقربهما من بعضهما جغرافيا حيث يفصل بينهما النيل، ويقدمهما علىٰ غيرهما لقربهما من جزيرة الروضة، ثم يذكر الجزيرة الكبرىٰ بعد ذلك لبعدها عن جزيرة الروضة بالنسبة لهما، ويجمع بينها وبين التاج والسبعة وجوه لقربها من بعضها[1]، فهو بذلك يضم النظائر إلىٰ بعضها.

ونرىٰ السيوطي يستعمل (إن) الشرطية مع الماضي[2] في (إن فاخرتها – وإن تطاولت – وإن قال التاج – وإن قالت السبعة أوجه) ليدل علىٰ أن ذلك – وإن وقع – فقد كان مما يستبعد وقوعه، وتأبىٰ نفسه القطع بحدوثه، لاعتقاده بأن كل هؤلاء لا يحق لهم مثل هذا التطاول والاعتداء علىٰ حقوق جزيرة الروضة ومنزلتها لبعد ما بينهم وبينها من حيث المكانة، ولتصوير هذا التعدي من جهتهم جعلهم السيوطي هم من يبدؤونها بالحوار، وجعل كلامها يبدو كردة فعل، وكأنما اشتعلت نفوسهم غيرة منها وحسدا لها فراحوا ينازعونها مكانتها وخصوصية منزلتها، أما الروضة فقد سكنت نفسها ورضيت بما خصها الله به فلم تلتفت لغيرها إلا لرد تطاولهم وطمعهم، لكنها مع ذلك جاءت بردود حازمة حاسمة، صاغتها في جمل اسمية (أنا الجديدة ... – أنا في ملازمة النيل الفردة البزة – أنا عروسة الحسن... – رب واحد كألف...) لتدل علىٰ ثبوت ما ادعته ودوامه، وليكون آكد في مقابلة كلام الجاحدين

(١) – ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٢٤٩ وما بعدها.

(٢) – (إن) الشرطية الأصل فيها ألا يكون شرطها مقطوعا بوقوعه؛ لكن دخولها علىٰ الماضي ينافي هذا الأصل، وقد علل لهذا الشيخ محمد أبو موسىٰ بأن ذلك يكون نتيجة تعبير المتكلم عما يشعر به داخليا لا بالنسبة للواقع، أي أن تعارض رغبة المتكلم مع الواقع تجعله يستعمل الحرف الدال علىٰ استبعاد الوقوع، ينظر خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني). ٢٣٦. محمد محمد أبو موسىٰ. م وهبة. ط٦. ٢٠٠٤م.

لفضلها، وكأنها تقول إن هذه أمور تمكنت في نفسي واستقرت عندي وعند غيري فهي حقائق لا يمكن إنكارها، وقد فعلت ذلك معها كلها إلا الجزيرة الكبرىٰ – التي تطاولت – فكان ردها عليها ردا مفعما بالسخرية والتقليل (أنىٰ يقاس...)، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

كذلك وظف السيوطي أسماء الأعلام الدالة علىٰ هذه الأماكن وأحوالها الجغرافية بطرق وأساليب متنوعة، ونقلها ببراعته وبلاغته من المدح إلىٰ الذم، فصارت نقاط ضعف لها تؤتىٰ منها؛ بدلا من أن تكون نقاط قوة تتفوق وتتميز بها، وذلك علىٰ النحو الآتي:

– **مصر القديمة**: جاء رد الروضة (أنا الجديدة، ولكل جديد لذة)، فطابق بين (القديمة – الجديدة)، مما يعد ملمزا خفيا ومؤلما في نفس الوقت؛ حيث يشير إلىٰ ما يحدث في الروضة من متابعة التجديد والإعمار؛ بينما تركت الفسطاط وأهملت بعد بناء القطائع ثم القاهرة المعزية، ثم ذيلت كلامها بتضمين المثل: لكل جديد لذة[١]، وكأنما هي أيضا لها سند من القديم، وجمعت بينه وبين ما قبله بالواو لتبني منه ما يشبه قياس علىٰ طريقة المذهب الكلامي يتوصل به إلىٰ نتيجة هي أن الروضة عيشها رغد لذيذ.

– **الجزيرة الوسطى**[٢]: قيل كان النيل إذا زاد دخل شوارعها حتىٰ ينتقل بين دورها بالمراكب[٣]، وربما طغىٰ عليها حتىٰ تغرق بيوتها وزراعاتها فتخرب

(١) – هذا جزء من بيت لضابئ بن الحارث استشهد به الحطيئة لما حضره الموت، فصارت مثلا، ينظر أمثال العرب. ١٤١. المفضل بن محمد بن يعلىٰ بن سالم الضبي. تح. إحسان عباس. دار الرائد العربي، بيروت – لبنان. ط٢. ١٩٨٣م.

(٢) – هي منطقة (الزمالك) بالقاهرة حاليا، ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٨٥.

(٣) – ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣٢٦.

وتهجر[1]، وقد عرض السيوطي بها في تلك الحال مع التورية بقوله: (قابلتها بالكسر)، حيث قصد به كسر خليج القاهرة – أي فتحه – عند وفاء النيل بمائه ليصل إلىٰ القرىٰ والبلاد البعيدة، ولذا قالت الجزيرة: (أنا في ملازمة النيل الفردة البزة)، لأنها لم يكن يصيبها شيء من ذلك، فقصرت هذه الميزة علىٰ نفسها دون الجزيرة الوسطىٰ.

– **الجزيرة الكبرى (جزيرة الفيل)**[2]: وهي أكثرهم حظا من التقليل، وكأنه عقوبة لها لما اقترفته من تطاول نحو جزيرة الروضة، التي صورها السيوطي مترفعة عن الخوض في ترهات القول بقوله: (أعرضت عن القال والقيل)، لكنها مع ذلك لم تغفر ذلك التطاول، بل ردته بأسلوب ساخر لاذع فقالت معرضة بجزيرة الفيل: (أنىٰ يقاس بخرطومي المشتهىٰ[3] زلومة الفيل)، حيث حملت أسلوب الاستفهام هنا شحنة من الدلالات تعبر عن استيائها من تطاول تلك الجزيرة، فحمل مع الاستبعاد والاستنكار التعجب والتحقير، وذكر زلومة هنا من باب السخرية والتحقير، وهي مرشحة للتورية في (الفيل).

ـ **التاج:** يجوز أن يكون في قول التاج (أنا المرفوع علىٰ الرووس) استخدام – الذي هو من فنون البديع – حيث جاء لفظ (التاج) دالا علىٰ المنظرة المعروفة في

---

(١) – ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٨٧.

(٢) – قيل سميت بذلك لأنها تكونت بسبب أنه قد "انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل، وترك في مكانه فربا عليه الرمل، وانطرد عنه الماء، فصارت جزيرة فيما بين المنية وأرض الطبالة" وموقعها الآن في منطقة شبرا من جهة جزيرة بدران وما حولها، ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣٢٥.

(٣) ـ خرطوم الروضة يعني أقصىٰ الطرف الشمالي منها، وهو أقل عرضا منها، وكان يأخذ شكلا مدببا، والمشتهىٰ بستان في الروضة كان به منظرة، ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٦٦، ٧٧.

ذلك الوقت، لكن الضمير عاد عليه باعتباره الحلية المعروفة التي توضع علىٰ الرأس، ويجوز أن يكون في (المرفوع علىٰ الرووس) تورية تآزرت مع الكناية عن رفعة شأنه وعلو مكانته، وعلىٰ كل حال فقد اختارت الروضة أن تسلم له في ذلك، من باب إرخاء العنان للخصم ومجاراته، فقدمت لحجتها أولا بقولها: (أنا عروس الحسن، لا سيما في عرس النيل)، فأضافت الموصوف (عروس) إلىٰ الصفة (الحسن) للتنبيه إلىٰ شدة الملابسة بينهما، و(عرس النيل) استعارة للاحتفال بعيد وفائه – وسيأتي الكلام عن ذلك وما يكون فيه من العجائب –، وللروضة في هذا اليوم خصوصيتها ومنزلتها التي لا تلحق، ولذا شبهت نفسها بالعروس في ذلك العرس، ولما كانت العروس من عادتها استعمال الحلي ومنها التاج أكملت هذه الصورة بقولها: (والتاج في خدمة العروس)، فنتج عن هذا القياس أن (التاج) لا يعدو أن يكون من خدمها، فأثبتت ذلك بطريق المذهب الكلامي وكأنه نتيجة خبرة وقياس.

– **السبعة أوجه**: انصب اعتمادها في الفخر علىٰ فكرة التعدد المنبثقة من الرقم سبعة وجمع وجوه في الاسم العلم الخاص بها، فتحدثت بضمير الجمع عن تعدد الوجوه والمناظر فيها، وأيدته بالتجريد بمن في (قد تعددت منا الوجوه والمناظر)، وناسب ذلك تعدد أوجه بعض كلماتها، حيث جانست بين (وجوه) و(أوجه) في اسمها من جهة أصل الاشتقاق، لأن أوجه هنا جزء من العلم، والتورية في (المناظر)، وبالرغم من ذلك يبدو أن السبعة أوجه شعرت بأن هذا غير كاف في مفاخرة الروضة فأتت بـ(قد) لتوكيد هذا التعدد – وهو ما لم تنازع فيه – لتثبت قلبها وتخفف من ارتجافته، فجاء رد الروضة يدحض ما اعتمدت عليه من فكرة التعدد بقولها: (رب واحد كألف أو يزيد)، حيث دخلت (رب) التي أفادت التكثير هنا علىٰ تشبيه الواحد بالألف أو زيادة، وكأن هذا يتكرر ويحدث كثيرا، فأسقطت قيمة

العدد والجمع في العلم عندها، وقيدت ذلك بقولها: (عند المناظر) مجانسة لكلمة (المناظر) في كلام السبعة وجوه مع شيء من السخرية، وكأنها تشير بذلك إلىٰ أنها انخدعت واغترت بالمناظر؛ أما حقيقة الأمر فتنكشف للناظر المتأمل، وتأييدا لذلك استشهدت الروضة لعلو كعبها علىٰ السبعة وجوه بقول الشاعر[1]:

أرىٰ المُشتهىٰ في روضةِ الحُسنِ قد بَدا علىٰ رَصدِ المعشَوقِ فالقَلبُ واجدُ
لعَمْرك ما السّبعُ الوجُوه إذا بَدتْ بمغنيةٍ عن وَجهِهِ وهو واحِدٌ

حيث ذكر أن بستان المشتهىٰ الواقع في جزيرة الروضة قد بدا وظهر من عند المرصد[2] الذي أقيم بالقرب من بستان المعشوق[3]، فعندها صار القلب واجدا، وهو ما ينبئ عن فضل بستان المشتهىٰ من جهة أن ظهوره للراصد من هناك كان أقوىٰ أثر في نفسه من بستان المعشوق بالقرب منه، حيث جعله مظروفا للروضة التي أضافها للحسن من إضافة الموصوف إلىٰ صفته لقوة الملابسة بينهما، ورتب وجد القلب علىٰ ظهور المشتهىٰ له بالفاء ترتب المسبب علىٰ سببه، وعبر بالجملة الاسمية ليدل علىٰ أن هذا أثر دائم ثابت لا يتغير، وعرف القلب بالألف واللام دون الإضافة ليشعر وكأن ذلك يحدث لأي قلب يظهر له بستان المشتهىٰ.

وفي البيت الثاني جاء أسلوب القسم أكثر قوة في التأكيد ردا علىٰ تأكيد السبعة وجوه كلامها بـ(قد) قبل ذلك؛ خاصة وقد تعاضد معه تأكيد اللام في (لعمرك)،

---

(١) – ديوان تقي الدين السروجي ما تبقىٰ من شعره وموشحاته. ٥٩. جمع وتحقيق ودراسة د. نبيل محمد رشاد. مكتبة الآداب– القاهرة. ط١. ٢٠١١م.

(٢) – مكان كان يعرف قديما بـ(الجرف)، ثم عرف بالرصد من أجل أن بدر الدين الجمالي أقام فوقه كرة لرصد الكواكب، ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ١/ ٢٣٦.

(٣) – أحد بساتين القاهرة القديمة، وكان يعرف قبل ذلك ببستان الأمير تميم بن المعز. ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٢/ ١٧٨.

والمبالغة في تأكيد النفي بالباء الزائدة في (بمغنية)، ومجيء الحال من (وجهه) جملة اسمية (وهو واحد).

فباهت جزيرة الروضة السبعة وجوه ببستان المشتهىٰ، وهو جزء صغير منها يقال إنه في أضيق أراضي الروضة وأقلها جودة[١]، ومع ذلك فقد كان يعد من عجائب البساتين، فبينت أن أقل ما فيها يعلو علىٰ مرتبة السبعة وجوه وأنها كلها لا تغني عنه.

ثم انتقل السيوطي لتأكيد منزلة الروضة بطريق آخر؛ وهو رسم عدة صور تشبيهية؛ تتواتر كلها علىٰ تصوير جزيرة الروضة وقد أحاط بها النيل ودار حولها، فقال: (كأنها بدر والنيل حولها هالة، أو شمس في وسط السماء ليس عليها سحابة أو غلالة، أو وجه دار عليه طيلسان، أو سرير ملك نصب في ميدان، أو قلب جيش له مصر والجيزة جناحان)، والسيوطي هنا لم يعن الشكل الخارجي الحسي فقط؛ وإنما أراد أيضا المنزلة والمكانة التي ترسيها هذه الصور في النفوس؛ وما لها من آثار وامتدادات نفسية في قلوب المخاطبين، فالهالة تحيط بالبدر، نعم، لكنها أيضا تابعة له صادرة عنه، وكذلك السماء تبدو في وجود نور الشمس الساطع بلا حجاب كخلفية لها؛ لا يكاد الناظر يستطيع رؤيتها أو إدراكها لما يغشىٰ بصره من ضوء الشمس، والوجه أصل والطيلسان في خدمته ولزينته، وسرير الملك يكون محط الأنظار؛ ومحل الاهتمام؛ والميدان كله في خدمته وتحت إمرة الجالس عليه، وقلب الجيش هو الأساس؛ فيه القيادة؛ ومنه الأوامر؛ وله الحماية؛ والجناحان له تابعان، فإذا كان النيل ذاته وهو ما هو؟! هذه هي منزلته من جزيرة الروضة، فكيف بمكانة الجزيرة نفسها إذن؟!

(١) – ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٥٣.

وكل تشبيه من هذه التشبيهات مقصود به الصورة المركبة، وهي في نفس الوقت صور تشبيهية متعددة تابع بينها السيوطي لتأكيد المعنىٰ الذي يريده، فهو من تشبيه الجمع الذي يكون في المشبه واحدا والمشبه به متعددا[1]، وعطف بينها بـ(أو) ليسوي بينها في المعنىٰ[2]، فكأنما استوت كلها في تشبيه الروضة بها من الناحيتين المعنوية والحسية[3].

والسيوطي هنا يجمع بين عدة صور منها ما هو مألوف معلوم ومنها غير ذلك، فهو بذلك يجمع بين الأثر المحمود للصورة المعلومة من حيث إقبال النفوس علىٰ ما تعرف وتألف؛ وبين الأثر المحمود للصورة غير المألوفة من حيث استحباب الجديد، فالسيوطي يكاد يرىٰ منزلة الروضة مما حولها في كل ما يتراءىٰ له من حوله، يراها في السماء وأجرامها، ويراها في الأرض وما حوت في السلم والحرب، ويراها حتىٰ في وجوه البشر وملابسهم، وهو يريد أن يقر ذلك ويمكنه لدىٰ المخاطب، ويجعله هو أيضا يراها في كل ما حوله، فأينما التفت بخاطره تراءىٰ له شبهها، حتىٰ تستقر في قلبه وعقله، وملمح آخر ظهر لي في تعدد التشبيهات وتواليها علىٰ هذا النحو؛ وهو أنها جميعا تحمل نفس الوجه الحسي ونفس الوجه المعنوي، فالسيوطي رصد تلون الصور لنفس المعنىٰ في كل المشبهات بها هنا، وهو ما

(١) – يرىٰ الدسوقي في حاشيته علىٰ تلخيص المفتاح أن تشبيه الجمع يشبه تشبيه المفرد بالمركب، وهذا ما لا يمكن القول به هنا، إذ المعنىٰ حينئذ لا يستقيم، ينظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص. ٣/ ٤٢٦.

(٢) – جاء في الأطول أن مثل (أو) هذه تفيد التسوية وهي أفضل من الواو في هذه الحالة لبعدها عن إيهام جعل المجموع مشبها به، ينظر الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. ٢/ ١٩٧.

(٣) – وللتسوية بين المشبهات بها في هذا النوع من التشبيهات أجاز بهاء الدين السبكي تسميته بتشبيه التسوية، ينظر عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص. ٣/ ٤٣٠.

يكشف عن جانب من جوانب التفكير عنده، من حيث استقراء الموجودات من حوله وجمع النظائر والمتشابهات، وهذا يعد من سمات العقلية العلمية الناضجة التي تحسن التحليل والتصنيف ثم الجمع والتأليف.

ثم عاد لوصف ما في الروضة من جمال الطبيعة والنبات فقال: (تبرجت بأنواع الأزاهر البهجة لا بالشيح والقيصوم)، فشبهها بامرأة جميلة تختال بزينتها لإظهار محاسنها، وحذف المشبه به وأتىٰ بشيء من لوازمه وهو التبرج ليدل عليه علىٰ سبيل الاستعارة المكنية، وجعل زينتها أفضل الأزاهر التي تدخل البهجة علىٰ القلوب وقصرها علىٰ ذلك عن طريق (لا) العاطفة، فجمع لها مع حسن المظهر إدخال الفرحة والبهجة علىٰ القلوب، ثم عن طريق الاستعارة التمثيلية جعل للربيع لسانا يخاطب به هذه الحسناء في قوله: (وناداها لسان الربيع: يا روضة، سنسمك بالخضرة علىٰ الخرطوم)، وفي الجملة تلميح لقوله تعالىٰ في الوليد بن المغيرة: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [(١)]، ففي لفظة الخرطوم هنا تورية يقصد بها خرطوم الروضة، أي المكان الذي ذكر سابقا، وقد بدا لي أن طريقة السيوطي هنا تقرب من أسلوب المدح بما يشبه الذم، لأن الأصل في الوسم علىٰ الأنف أن ذلك يكون بقصد إلحاق العار والإذلال، وهو ما توعد به الله ﷻ الوليد بن المغيرة، فإذا كان هذا هو حال الإذلال والإهانة بالنسبة للروضة فكيف بها في حال الإعزاز والكرامة؟!

ثم نبه علىٰ تغيير الأسلوب فقال: (ونغير الأسلوب فنقول: نثرت السماء علىٰ أغصانها النجوم، وارتشف من خرطومها زلال الريق والرحيق فلم تحتج في كلا الحالين إلىٰ خرطوم، وقال الشاعر[(٢)]:

---

(١) – القلم. ١٦.

(٢) – لم يعثر علىٰ قائلهما.

وَخَـصَّ البحـرُ منهـا كـلَّ خُـصٍّ وعـمّ بروضِـها الزاهِـي أكامَـه
فقلـتُ وقـد سـقىٰ الخُرطـومَ عَـلاّ أخرطـومٌ بَـدَا لـي أمْ مُدَامـه؟!

ويبدو أنه قصد بتغيير الأسلوب هنا الإيذان بإنهاء المقارنات والموازنات، والخروج من طريقها إلىٰ طريق جديد، فقد استعمل الاستعارة في قوله: (نثرت السماء النجوم) كما استعملها قبلا، فصور السماء وكأنها ترعىٰ هذه الروضة وتنثر عليها كنزا من نجومها، فما علىٰ أشجار هذه الجزيرة ليس ثمارا أو أزهارا وإنما هو نجوم أخذتها عطية من السماء، واستعمل الجناس كذلك بين (خرطومها - خرطوم) (الريق - الرحيق)، وختم الفقرة بالتضمين وقد حمل أيضا ألوانا من البديع نحو الجناس بين (خَصَّ - خُصٍّ)، الطباق بين (خص - عم)، وتجاهل العارف في قوله: (أخرطوم بدا لي أم مدامه؟!)، وقد عد الكرماني تجاهل العارف والي سحر البلاغة وسلطان مملكتها[1].

**بعد هذا التحليل للأساليب البلاغية الواردة في هذا الجزء من المقامة يستطيع القارئ الكريم أن يرى** بوضوح ما نتج عنها من تشكيل تقنيات دعائية منها: أسلوب التظاهر بمنح فرص الحوار والتعبير عن الرأي لجميع الاتجاهات بإتاحة الفرصة للمتنزهات الأخرىٰ أن تذكر في الكلام، وأن تعبر عن شيء من مفاخرها، وإن كان في الحقيقة استدعاؤها هنا لم يكن إلا لإعلان تتويج الروضة ملكة عليها كلها.

ومن ثم ظهر أسلوب التشكيك في مفاخرهم، وأسلوب التقليل حيث قلبت كل نقاط قوتهم إلىٰ نقاط ضعف، ووصل الأمر لحد السخرية أحيانا فظهر أسلوب النكتة، وبسبب تحيز السيوطي لجزيرة الروضة لم يذكر عيوبها ولم يعط لمنافسيها مساحة للرد فتولد من ذلك أسلوب الحذف، كما جاء أسلوب الإلباس والتشويش

(١) - ينظر تحقيق الفوائد الغياثية. ١/ ٤٨٤. محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني. تح. علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية. ط١٤٢٤, ١هـ.

علىٰ الخصم كثيرا هنا كما ظهر عند تحليل فنون البديع وما صاحبها من فنون أخرىٰ أدت إلىٰ رد كل حجة أتىٰ بها أي ممن نافس الروضة أو ادعىٰ الفضل أمامها، في حين ظهر أسلوب التضخيم والتهويل عند ذكر مفاخر الروضة، ليس فقط عند مواجهة من نافسوها ولكن أيضا عند تصويرها مع النيل في التشبيهات المتتالية، وعند ذكر اعتناء الطبيعة كلها بها، وكذا عند وصف خرطومها بما وصف به وما قيل فيه من مبالغات أشعرت أن باقي الروضة يخرج عن طاقة الوصف.

وقد تولد أسلوب التجديد من انتقال السيوطي من وصف الروضة علىٰ الوتيرة السابقة إلىٰ أسلوب المقارنات والمفاخرات، ثم الانتقال من هذا الأسلوب إلىٰ أسلوب التصوير البياني المكثف وهكذا، هذا إلىٰ جانب وجود الأسلوب الديني عن طريق الاقتباس وربطها ببلقيس ملكة سبأ، ووجود الأسلوب العلمي باستخدام مصطلحات العلوم، والاستشهاد بالأقوال المأثورة في تضمين المثل والشعر، والأسلوب الغنائي في الجناس والتضمين والسجع وفواصله، ورسم الصورة الذهنية من خلال التصوير البلاغي، وإطلاق الشعارات وتسميتها في (ملكة المتنزهات – عروس الحسن – روضة الحسن).

## المبحث الرابع

## سكانها وصور الحياة فيها

**يقول السيوطي:**

كانت دار ملك وخلافة، وسرير سَلطنة ورُتبة إنافة، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قُضاة وحكام، ومقر صُلحاء وعبّاد، ومفر صُوفية وزُهاد، ويكفي في الرد علىٰ المُعارض قول الشيخ عمر بن الفارض:

جِلــقٌ جَنــةٌ مــن تــاه وَبــاهىٰ ... بِرُبَاهــا غيرهــا لِــولا وباهــا

قــالَ غــالٍ بَــرَدَىٰ كَوْثَرُهَــا ... قلــتُ غــالٍ بَرَداهــا بِردَاهــا

وطنــي مِصــرُ وفيهــا وطــري ... ولنفســي مُشْــتَهاها مُشْــتَهاها

ولعيني غيرها إن سَكَنــتْ=يا خليليَّ سَلاَهَــا ما سَلَاها وكم سكن بها من خلفاء وملوك وأمراء، وكُتاب ورؤساء ووزراء، وقراء وأولياء، وفقراء وأغنياء، وأذكياء وأغبياء، وذوىٰ هنات وأتقياء، تلاوة قرآن، وتدريس أفنان، وشعائر وآذان، ونغمات وألحان، وقضاء أوطار، وضربات اوتار،كل نفس بما كسبت رهينة، وعلىٰ ما حمّلت من أمانة دينها امينة، فهذا يسعىٰ في خلا ص ذمته، وأداء أمانته، وهذا يوقعه القدر في حبائل خيانته بجنايته، قل كل يعمل علىٰ شاكلته، فكأن لسان الحال يقضي بأن الحريري إنما عناها حيث قال:

بهــا مــا شِــئْتَ مــنْ دِيــنٍ ودُنْيــا ... وجيــرانٍ تأسَّــوْا في المَعــاَني

فمَشــغوفٌ بآيــاتِ المثَــاني ... وَمَفْتُــونٌ برَنّــاتِ المَثَــانِي

ومُضْــطَلِعٌ بتلْخــيصِ المَعــاني ... ومُطّلِــعٌ الــىٰ تخْلــيصِ عــانِ

وكــمْ مــنْ قــارِئٍ فيهــا وقــارٍ ... أضَــرّا بــالجُفونِ وبالجِفــانِ

وكــمْ مــنْ مَعْلــمٍ للعِلْــمِ فيهــا ... ونــادٍ للنّــدىٰ حُلــوِ المَجــاني

فصِــلْ إن شِــئتَ فيهــا مَــنْ يُصَــلّي ... وإمّــا شِــئتَ فــادْنُ مــنَ الــدِّنانِ

ودونَـــكَ صُـــحبَةَ الأكيـــاسِ فيهـــا أوِ الكاســـــاتِ مُنطَلِـــــقَ العِنـــــانِ

هذا يَعُدُّها عَونا علىٰ تقواه، وهذا يعدها للعبه ومَلهاه، هذا يَرعىٰ فيها النجوم، ويناجي فيها الحي القيوم، وهذا يغفل ليله إلىٰ الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم، هذا ينظر إليها بعين الفكرة والتبصّر في عجائب القدرة، وهذا ليس له منه إلا الابتهاج بنضارة الزهرة، هذا يشهد فيها مشاهد شهوده، وهذا يسهد؛ ونوم غيره أفضل من سهوده، وقال الأستاذ سيدي محمد وفا في ديوانه:

رأيتُ رِياضَ القُدسِ في روضةِ الرضىٰ علىٰ نيلِ مصرَ بين تلكَ المَناظِرِ
مناظرُهـــا للنـــاظِرين مَشـــارِقٌ وفيهـــا وجـــوهٌ كالبُـــدورِ البـــوادِرِ
حكينَ شُموسًا في السّحابِ وقد بدتْ وجـــوه الأغـــاني في سُـــتورِ الأعـــاجرِ
وتشـــبِهُ آفـــاق الســـماوات في الـــدجىٰ وفيهـــا مصـــابيحُ النجـــومِ الزواهـــر
وتحكـــي طيـــورًا عاليـــاتٍ رؤُوســـها علىٰ النيـلِ فيهـا سَـابِحاتُ الشـخَائِرِ
ويشـــبِهُ ســـيبُ المـــاءِ فيهـــا صَـــوارِمًا بأيـدي الهَنـا سُـلّتْ لسـلبِ النـواظرِ

يؤكل فيها حيوان البرِّ زكيا، وصيد البحر طريا، وثمر الأشجار جنيا، ويشرب فيها الماء من شوائب الأقذار عريا، ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا، فيبرئ من الأسقام عليلا، ويشفىٰ من الأوار غليلا، ساكنها قد وُقي السُّموم والحرور، وأعفىٰ من شعث الكيمان والبرور.

وهي خفضة في رَبْوة، وجمعية في خلوةٍ، ترىٰ المارين في البر والبحر وأنت عنهم في بُعُد، وتشاهد وأنت مُعتزل من كان في انحدارٍ أو صُعُد، وأنت متحصن من الثُّقلاء بقلعة حولها من الماء خنادِق، ومن تمام حسنها تعدّدُ أبواب بيوتها ففيها مَخلَصٌ عند مجيء الطّارق، وكم لله علىٰ ساكنها من منٍّ لا يُحصِي العادُّ ضبطه، وكم تلا عليه لسان النعمة أن اشكروا لله علىٰ ما أولاكم وزادكم في الخلق بسطة.

فإن قيل لها من الناموس شَينٌ، فقل لا بدّ منه لدفع العين، وقد قيل:

يـا ليلـة غـرّدتْ فيهـا البعـوضُ وقـد ... "طـاروا إلـيّ زرافـاتٍ ووحـدَانَا
يصـرعْنَ ذا اللّـبِ حتـىٰ لا حَـرَكَ بـه ... وهـن أضـعفُ خَلـقِ الله أركانَـا

فإن قيل ويخلُفُه عُند انقضائه أذىٰ البراغيث، وذلك إذا البر أغيث، فقل:

لا تكـرهِ البرغـوثَ إن اسـمَهُ ... بِـرٌّ وغـوثٌ لـك لـو تَـدرِي
فبُّـره مَـصٌّ دَمٍ فَاسـدٍ ... والغَـوثُ إيقاظُـه لـك في الفجـرِ

انتقل السيوطي لذكر سكان الروضة وأحوالهم بتفصيل أكبر، وأول ما ذكر من ذلك قوله: (كانت دار ملك وخلافة، وسرير سلطنة ورتبة إنافة، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قضاة وحكام، ومقر صلحاء وعباد، ومفر صوفية وزهاد، ويكفي في الرد علىٰ المعارض قول الشيخ عمر بن الفارض[1]:

جِلـقٌ جَنـةٌ مـن تـاه وَبـاهىٰ ... بِرُبَاهـا غيرهـا لِـولا وباهـا
قـالَ غـالٍ بَـرَدَىٰ كَوْثَرُهَـا ... قلـتُ غـالٍ بَرَداهـا بِردَاهـا
وطنـي مِصـرُ وفيهـا وطـري ... ولنفسـي مُشْـتَهاها مُشْـتَهاها
ولعينـي غيرهـا إن سَـكَنتْ ... يـا خليلـيَّ سَـلاَهَا مـا سَـلاَها

فلمح إلىٰ قلعة الملك الصالح نجم الدين أيوب التي بناها في هذه الجزيرة، وانتقل بحاشيته ومماليكه للعيش فيها، وقد كانت من عجائب ذلك الزمان علىٰ ما سبق ذكره، وقد صاغ عبارته جملة واحدة، جمع فيها رؤوس القوم وساداتهم، ورتبها من الأعم للأخص، فبدأ بالسيادة السياسية، ثم العلم والحكومة، ثم الدين والعبادة، واعتمد في أسلوبه علىٰ التنكير للتفخيم والتعظيم، والإضافة في (دار ملك)

(١) – ديوان ابن الفارض. ٥٥٣– ٥٥٧ .أبي حفص عمر بن أبي الحسن. شرح رشيد بن غالب الدحداح. مطبعة شركة الفعلة. مرسيلية. ١٨٥٣م.

وما عطف عليها لتشريف المضاف، ومراعاة النظير في الجملة أكدت ما يقصده من الترويج لفكرة أن الجزيرة كانت المحل المختار للقادة والأئمة، والجناس مع ما يلحق بالطباق في (مقر – مفر) شكل مفارقة تثير العجب والدهشة، وقد جعل كل جملتين علىٰ سجعة واحدة فأحدث إيقاعا مرددا مع نغم متنوع، حتىٰ ظن محقق كتاب بلبل الروضة أن قوله: ( كانت دار ملك وخلافة، وسرير سلطنة ورتبة إنافة) بيت شعر.

ثم استشهد بأبيات للشيخ عمر بن الفارض (سلطان العاشقين)؛ يفضل فيها مصر علىٰ دمشق، ويذكر فيها تعلقه ببستان المشتهىٰ، فبدأ اولا بتفنيد رأي من فضل دمشق، حيث ذكر تشبيه البعض دمشق بالجنة في قوله: ( جلق جنة من تاه وباهىٰ برباها غيرها لولا وباها)، لكنه أضاف (جنة) هذه إلىٰ الاسم الموصول وجعل صلته (تاه وباهىٰ برباها غيرها) فالتيه ومباهاة الغير بسبب ما فيها من الربا؛ ولذا قدم ذكرها علىٰ المفعول لاعتنائه بإبراز محل الإعجاب بها، فهي عنده جنة من هذه الناحية، وعقب علىٰ ذلك بما ينسف هذا الزعم بقوله: (لولا وباها)، فذكر الوباء وإضافته للضمير العائد علىٰ دمشق لا يترك مجالا لاعتقاد شبهها أو علاقتها بالجنة، وأين هذا مما مر من قول السيوطي عن الروضة (ونوازع الهموم والغموم منها مغيضة)؟!.

والبيت تتوالىٰ فيه الضمائر بشكل يجعل اللسان يتردد في النطق؛ والعقل يتحير في الفهم، وهذا مما رأىٰ البلاغيون أنه مما يخل بفصاحة الكلام ومن ثم ببلاغته، وأظن أن الشاعر أراد أن يبث في بيته هذا العناء ويرهق قارئه وسامعه علىٰ هذا النحو وعمد إليه ليثقل ذكر دمشق عنده؛ خاصة مع ذكرها باللفظ الأعجمي (جلق) علىٰ ثقله، ويأتي الجناس بين (باهىٰ – رباها – وباها) وكأنه يشير إلىٰ انخداع من ظنها جنة

كما يخدع الجناس المتلقي للوهلة الأولىٰ فيظنه إعادة مع كونه يحمل معان ودلالات مختلفة كما أشار الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كلامه عن الجناس[1].

وعلىٰ هذا النحو أيضا ورد الجناس في البيت التالي في (قال -غال -غال) و(برداها -برداها)، وآزره رد العجز علىٰ الصدر الذي جعل المخاطب يلتفت للتشبيه في أول البيت ويردد نظره فيه، وبذلك دحض زعم من شبه بردىٰ بالكوثر، فإن مجانسة اسم النهر للردىٰ في (بـ -رداها) مع إضافتهما جميعا للضمير العائد علىٰ جلق، جعل النفس تعزف عنه، وتنكر هذا الشبه وترفضه.

ولما انتهىٰ من رد كلام من فضل دمشق، خلا المركز المتقدم للبلد المفضل وصار شاغرا، عندها قطع كلامه السابق واستأنف حديثا جديدا يثبت فيه الفضل لمصر، فقال: (وطني مصر)، فقصر المسند إليه (وطني) علىٰ المسند (مصر)، واستعان بالقصر مرة ثانية في (وفيها وطري)، ومرة ثالثة في (ولنفسي مشتهاها مشتهاها)، كما استعان بالجناس هنا رابطا لفظيا يعكس الرابط النفسي في (وطني - وطري) و(مشتهاها - مشتهاها).

ولأن هذه البلد فيها الوطر والمشتهىٰ فإنه لو اضطر أن يسكن غيرها فإنه لن يجد أبدا ما يسليه عن ألم فراقها، لذلك استخدم (إن) في الشرط في قوله: (إن سكنت) للدلالة علىٰ أن ذلك مبغض إليه مستبعد الحدوث، ثم إنه لما خطر علىٰ باله هذا الاحتمال أشفق علىٰ نفسه من وصوله لهذه الحال، فأعد عدته ووصىٰ خليليه بما يقدمانه له من المعونة في هذه الشدة، فطلب منهما أن يهدهدا نفسه ويسألانها عن سلوها عندئذ؛ ما هو؟ وكيف يكون؟ فنبههما أولا بالنداء ليستجمعا انتباههما ويحفظا قوله، ثم قال (سلاها) أي اسألا عيني (ما سلاها؟) أي ما سلوها في هذا

(١) - ينظر أسرار البلاغة. ١١.

المصاب، وقد عمل الجناس مع رد العجز علىٰ الصدر ترديدا صوتيا، جعل المعنيين يترددان في ذهن المخاطب ويتركان صداهما في عقله وقلبه، هذه هي شهادة ابن الفارض وهو الصوفي الزاهد، والعالم العابد، شهادته غير مجروحة، وكلمته وثيقة، اختار مصر وفضلها، ولم يجد عنها ولا عن بستان المشتهىٰ سلوا.

ولما بين أنها المحل المختار الذي لا يفضل عليه مكان، راح يستعرض أنواع من أقام في الجزيرة وتفاوت رتبهم وطبقاتهم، فاستعمل (كم) الخبرية ليعبر عن كثرة كل صنف يذكره منهم فقال: (وكم سكن بها من خلفاء وملوك وأمراء، وكتاب ورؤساء ووزراء، وقراء وأولياء...)، فبدأ أولا بالرؤساء والقادة لأن تأثر العامة بالاقتداء بهم أقوىٰ وأشد، ولذا بدأ بالأعلىٰ سلطة ونفوذا ثم أتبعه بالأقل علىٰ سبيل التدلي، وبعد ذلك استخدم الطباق بين أحوال الناس التي لا يخلو فرد منها في قوله: (وفقراء وأغنياء، وأذكياء وأغبياء، وذوىٰ هنات وأتقياء) فدل بذلك علىٰ أن الروضة كانت اختيارا لمعظم الأطياف، والكناية عن المذنبين بـ(ذوي هنات) للتحرز عن ذكر لفظ يتعلق بالذنب أو الإجرام في هذا المقام، وتنزها من السيوطي عن أن يصم غيره بذلك، واختيار أن يسند لكل هؤلاء الفعل (سكن) دون أقام مثلا لما يحمله من معنىٰ الطمأنينة وهدوء النفس، والتقسيم مع السجع جعل الجملة – رغم طولها – تبدو خفيفة؛ وذلك لما حصل فيها من التوقيع والتنغيم.

ثم كأن سائلا سأل عن عيش كل هؤلاء وما يعملونه في جزيرة الروضة؛ فاستأنف جملة جديدة عدد فيها ألوان النشاطات التي تدور في جزيرة الروضة، والتي لا يكاد يخلو إنسان في ذلك العصر من الميل لواحد أو اكثر منها، فقال: (تلاوة قرآن، وتدريس أفنان، وشعائر وآذان، ونغمات وألحان، وقضاء أوطار، وضربات أوتار)، وحذف المسند (فيها) وكأن العقل يصرفها إليها ولا ينسبها مع اجتماعها علىٰ هذا النحو إلىٰ غير الروضة، وبدأ بالأعلىٰ شرفا وهو تلاوة القرآن، يليه نشر العلم في

مختلف الفروع والفنون، وهذان من أهميتهما عندهم أنه كان يرحل في طلبهما لأعوام في ذلك الزمان، ثم ذكر الشعائر والآذان وهما مما لا غنىٰ عنهما، ثم أتبع ذلك بذكر شيء من لهو الدنيا ومتاعها الذي تنساق له النفوس ويتبع المرء فيه هواه، فأيما كان السامع وأيا ما كان شغفه سوف يجد مطلبه وبغيته في هذه الجزيرة.

ثم نبه إلىٰ أن عمل الخير أو الشر إنما هو باختيار الإنسان نفسه لا بالمكان، وأن علىٰ المرء أن ينظر إلىٰ عاقبة أمره وارتهان نفسه بكسبه وعمله فاقتبس قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ (١)، فعاد بالسامع إلىٰ أصل الدين والتشريع بالوحي الذي لا يمارىٰ فيه، وجعله رقيبا علىٰ نفسه وعمله، ثم ذكره ثقل الامانة التي في رقبته بقوله: (وعلىٰ ما حملت من أمانة دينها أمينة)، فاستعمل فعيل التي بمعنىٰ فاعل في (أمينة) في محل اسم المفعول أي مستأمنة علىٰ سبيل المجاز المرسل تذكيرا بما يجب أن يكون، وأيده برد العجز علىٰ الصدر الذي وقع بين (أمانته – أمينة)، وقد جمع الكل تحت هذا الحكم، ثم فرق بين من وعاه وعمل به وبين من خان أمانته وغفل عن عاقبته فقال: (فهذا يسعىٰ في خلاص ذمته، وأداء أمانته، وهذا يوقعه القدر في حبائل جنايته بخيانته)، فعطفها بالفاء التي أفادت التفريع، واستعمال اسم الإشارة لإحضار الصنفين في الأذهان وكأنهما ماثلين أمام المتكلم والمخاطبين حسا ليكون أقوىٰ أثرا في النفوس، وقدم من وفىٰ بالأمانة لأنه الأهم، وهو ما يجب أن يكون عليه الأغلبية، وقابل بين حاليهما بحيث يرتبط العمل بجزائه ترغيبا وترهيبا، وقوىٰ معنىٰ الترهيب بالاستعارة في قوله: (وهذا يوقعه القدر في حبائل جنايته بخيانته)، حيث صور الجاني علىٰ نفسه بخيانة دينه بالمأسور في حبائل متشكلة من

(١) – المدثر. ٣٨.

هذه الجناية بسبب خيانته، مع ما وقع في النفس من أثر الجناس بين (جنايته – خيانته) من ارتباط بينهما.

ثم أجمل ما فصله في هذا التفريق فعاد للجمع مع الاقتباس مرة أخرىٰ فقال: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [(١)] لتأكيد المعنىٰ وتقريره لما له من أهمية عنده، واستشهد لهذا التنوع بين طبائع البشر وتصرفاتهم بشعر للحريري قاله عن مكان بالبصرة في إحدىٰ مقاماته[(٢)]؛ قدم له بقوله: (فكأن لسان الحال يقضي بأن الحريري إنما عناها حيث قال:)، لكن السيوطي لم يكتف بقياس هذه علىٰ تلك، فزاد علىٰ ذلك بأن جعل للحال الذي يراه لسانا يقضي به وينطق به حكما يقصر فيه قصد الحريري من هذه الأبيات علىٰ جزيرة الروضة، وكأن هذه الأبيات قيلت لتنطبق عليها دون غيرها من بقاع الأرض، ليشعر السامع بأن ما ورد فيها من أوصاف الحياة والسكان؛ من خصوصيات هذه الجزيرة، وأن ما ورد فيها من اختيارات مرنة لا يتاح إلا فيها، يقول الحريري:

بهـا مـا شِـئْتَ مـنْ دِيـنٍ ودُنْيـا ... وجيـرانٍ تأسَّـوْا في المَعـاَني
فمَشـغوفٌ بآيـاتِ المثَـاني ... وَمَفْتُـونٌ برَنّـاتِ المَثَـانِي
ومُضْـطَلِعٌ بتلْخـيصِ المَعـاني ... ومُطّلِـعٌ الـىٰ تخْلـيصِ عـانِ
وكـمْ مـنْ قـارِئٍ فيهـا وقـارٍ ... أضَـرّا بـالجُفونِ وبالجِفـانِ
وكـمْ مـنْ مَعْلَـمٍ للعِلـمِ فيهـا ... ونـادٍ للنّـدىٰ حُلـوِ المَجـاني
فصِـلْ إن شِـئتَ فيهـا مَـنْ يُصَـلّي ... وإمّـا شِـئتَ فـادْنُ مـنَ الـدِّنانِ

---

(١) – الإسراء. ٨٤.

(٢) – مقامات الحريري. ٣٩٧. أبي القاسم بن علي الحريري. تح. عيسىٰ سابا. دار بيروت للطباعة والنشر– بيروت. ط١. ١٩٧٨م.

ودونَـــكَ صُـــحبَةَ الأكيـــاسِ فيهـــا أوِ الكاســـــاتِ مُنطَلِـــــقَ العِنـــــانِ

وافتتاح الأبيات بقوله: (بها ما شئت من دين ودنيا) يحرك الطمع فيها وفي سكناه ويعلي قدرها ومنزلتها في النفوس، وانظر – رعاك الله – كيف جعل حب القرآن شغفا، وجعل حب رنات المثاني فتنة، وكيف قابل بينهما، وكيف قدم أوجه الخير ومكارم الأخلاق والأفعال علىٰ غيرها، وجعلها هي الغالبة، ثم انظر أيضا إلىٰ الجناس بين الشطرين في قوله:

ومُضْـــطَلِعٌ بتلْخـــيصِ المَعـــاني ومُطّلِـــعٌ الـــىٰ تخْلـــيصِ عـــانِ

فكأنما يربط بينهما فهذا يخلص المعاني مما يشوبها كما أن ذلك يخلص من يعاني هما أو غما من مصابه، وكذلك الجناس مع اللف والنشر في قوله:

وكـــمْ مـــنْ قـــارِئٍ فيهـــا وقـــارٍ أضَـــرّا بـــالجُفونِ وبالجِفـــانِ

وكأنما تعالق المعنيان واتفقا من حيث إن هذا يجود بصوته وليله فيكرم نفسه وملائكة الرحمة بتلاوة القرآن، وهذا يجود بطعامه لغيره، وخير ما يكون ذلك للطارق ليلا، وأيضا استعمال الجناس مع كم الخبرية للتكثير في قوله:

وكـــمْ مـــنْ مَعْلَـــمٍ للعِلـــمِ فيهـــا ونـــادٍ للنّـــدىٰ حُلـــوِ المَجـــاني

فجعل ما فيها من مجالس العلم معالم تؤم، وكذلك مواضع الكرم وجعل ما ينال فيها من العطاء مجاني حلوة علىٰ سبيل الاستعارة، فدل علىٰ كثرة ذلك فيها، وربط بين معالمها والعلم ونواديها والندىٰ، ولما عرض اختلاف الناس وتفاوتهم علىٰ هذا النحو رتب علىٰ ذلك أن خيَّر المخاطب في صحبة أي منهم، فقال:

فصِـــلْ إن شِـــئتَ فيهـــا مَـــنْ يُصَـــلّي وإمّـــا شِـــئتَ فـــادْنُ مـــنَ الـــدِّنانِ

ودونَـــكَ صُـــحبَةَ الأكيـــاسِ فيهـــا أوِ الكاســـــاتِ مُنطَلِـــــقَ العِنـــــانِ

فجاء الأمر في (صل – دونك) للتخيير، وقيد كلا بالحال (منطلق العنان) الذي استعاره للخلوص من القيود.

ثم عاد لأسلوب التفريق في الحديث عن أحوال ساكني الروضة من أهل الطاعة وغيرهم[١]، فقال: (هذا يعدها عونا علىٰ تقواه، وهذا يعدها للعبه وملهاه، هذا يرعىٰ فيها النجوم، ويناجي فيها الحي القيوم، وهذا يغفل ليله إلىٰ الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم، هذا ينظر إليها بعين الفكرة والتبصر في عجائب القدرة، وهذا ليس له منه إلا الابتهاج بنضارة الزهرة، هذا يشهد فيها مشاهد شهوده، وهذا يسهد؛ ونوم غيره أفضل من سهوده، وقال الأستاذ سيدي محمد وفا في ديوانه[٢]:

رأيتُ رِياضَ القُدسِ في روضةِ الرضىٰ ... علىٰ نيلِ مصرَ بين تلكَ المَناظِرِ
مناظرُها للناظِرين مَشارِقٌ ... وفيها وجوهٌ كالبُدورِ البوادِرِ
حكينَ شُموسًا في السّحابِ وقد بدتْ ... وجوه الأغاني في سُتورِ الأعاجرِ
وتشبِهُ آفاق السماوات في الدجىٰ ... وفيها مصابيحُ النجومِ الزواهرِ
وتحكي طيورًا عالياتٍ رؤُوسها ... علىٰ النيلِ فيها سَابِحاتُ الشخَائِرِ
ويشبِهُ سيبُ الماءِ فيها صَوارِمًا ... بأيدي الهَنا سُلّتْ لسلبِ النواظرِ

فكرر استعمال اسم الإشارة لإحضار المتحدث عنهم حسا علىٰ نحو ما سبق، واستعمل الأفعال المضارعة في كلامه ليدل علىٰ أن كل ما ذكره أمور متجددة متكررة، وقد بنىٰ مقارنته بين الفريقين علىٰ أسلوبين أساسيين هما الجناس

(١) – يلحظ هنا إلحاحه علىٰ فكرة التفريق من هذه الجهة بخصوصها، مما يدل علىٰ أهمية هذا الأمر عنده، واعتنائه بتقرير ذلك عند المخاطب.

(٢) – ديوان محمد وفا الشاذليّ الشاعر الصوفيّ. ٣٤١ وما بعدها. تحقيق ودراسة وشرح مهدي أسعد عرار. دار الكتب العلمية – بيروت. ١٤٣٧هـ– ٢٠١٦م.

والمقابلة مع مساعدة أساليب أخرىٰ مثل السجع والاستئناف والطباق ومراعاة النظير والاستعارة والقصر والترقي، فجانس بين (يعدها) الأولىٰ من العد والحسبان، و(يعدها) الثانية من الإعداد والتجهيز، وبين (يشهد - يسهد) و(شهوده- سهوده)، وقابل بن حال من اتخذ الروضة كما هي سبيلا معينا علىٰ التقوىٰ؛ ومن أخذ يمدها بالتجهيزات للعب واللهو، وبين من قضىٰ ليله في عبادة ربه؛ ومن قضاه غافلا أو عاصيا، وبين المتفكر المتأمل في بدائع خلق الله وعجيب قدرته، وصاحب النظرة السطحية الذي يقف عند جمال المنظر الخارجي لا يتجاوزه، وبين من يصل إلىٰ مقام المشاهدة بطول العبادة؛ ومن فارقه النوم فطال سهاده من غير فائدة حتىٰ صار نوم غيره أنفع له من طول سهره، وقد ساعد السجع والاستئناف في تحديد كل نقطة من نقاط المقارنة علىٰ حدة؛ حيث جعل لكل نقطة في مقارنته سجعة مغايرة؛ واستأنف الكلام عند بداية كل نقطة.

ومن الأساليب التي ساهمت في إبراز هذه المعاني أيضا الطباق في (يغفل ليله إلىٰ الصباح - نوم غيره أفضل من سهوده)، ومراعاة النظير في (للعبه وملهاه - هذا ينظر إليها بعين الفكرة والتبصر في عجائب القدرة)، ومنها أيضا الاستعارة في (يرعىٰ النجوم)، والقصر في (وهذا ليس له منه إلا الابتهاج بنضارة الزهرة)، ومنها أيضا الترقي في ذكر أحوال المتعبدين؛ حيث بدأ بذكر التقوىٰ، ثم قيام الليل للعبادة، ثم التأمل والتفكر في عجائب القدرة، ثم الوصول إلىٰ مرتبة المشاهدة؛ وهي من المراتب العليا عن الصوفية، فناسب ذلك بأن ختم هذه الفقرة بالاستشهاد بأبيات لأحد الصوفية يذكر فيها جزيرة الروضة، وما فيها من الرياض وحسن مناظرها، وما حوته من بديع القصور والمناظر المبنية فيها، وجمال أشكال الماء المنساب في مجاريها، وفيها يقول:

رأيتُ رِياضَ القُدسِ في روضةِ الرضىٰ  علىٰ نيلِ مصرَ بين تلكَ المَناظِرِ

مناظرُهـــا للنـــاظِرين مَشـــارِقٌ وفيهـــا وجـــوهٌ كالبُـــدورِ البـــوادِرِ
حكـينَ شُموسًـا في السّحابِ وقد بدتْ وجـــوه الأغـــاني في سُـــتورِ الأعـــاجرِ
وتشـــبِهُ آفـــاق الســـماوات في الـــدجىٰ وفيهـــا مصـــابيحُ النجـــومِ الزواهـــر
وتحكـــي طيـــورًا عاليـــاتٍ رؤُوســـها علـىٰ النيـلِ فيهـا سَـابِحاتُ الشـخَائِرِ
ويشـــبِهُ ســـيبُ المـــاءِ فيهـــا صَـــوارِمًا بأيـدي الهَنـا سُـلّتْ لسـلبِ النـواظرِ

فأضاف الموصوف إلىٰ صفته في كل من (رياض القدس – روضة الرضىٰ) ليدل علىٰ قوة الملابسة بينهما في كل، وشبه قصورها بالمشارق في قوله: (مناظرها للناظرين مشارق)، وجاء بعدة تشبيهات متتالية تزيينا لجزيرة الروضة وترغيبا فيها، فشبه وجوه سكانها بالبدور في قوله: (وفيها وجوه كالبدور)، ثم شبهها بالشموس في قوله: (حكين شموسا...)، وكأنما اجتمع فيها الأضداد وفازت من كلٍ بخير ما فيه من أوجه الجمال، ثم جمع صورة المناظر مع سكانها في تشبيه واحد بقوله:

وتشـــبِهُ آفـــاق الســـماوات في الـــدجىٰ وفيهـــا مصـــابيحُ النجـــومِ الزواهـــر

ثم شبه المناظر فقط بالطيور في قوله: (وتحكي طيورا عاليات رؤوسها)، وشبه الماء بسيوف خاصة، مشهرة بأيدي الهنا تسلب بها الأنظار لشدة بريقها وجمالها فقال:

ويشـــبِهُ ســـيبُ المـــاءِ فيهـــا صَـــوارِمًا بأيـدي الهَنـا سُـلّتْ لسـلبِ النـواظرِ

فالأبيات من كلام صوفي زاهد، له أتباعه ومريدوه، لكلمته ثقلها وأثرها في النفوس، وهو نفسه سكن الروضة وأقام بها فكلامه عن تجربة وخبرة[1].

(١) – ينظر الأعلام. ٧/ ٣٧. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي. دار العلم للملايين. ط١٥. ٢٠٠٢م.

ثم انتقل لذكر ما ينعم به سكان الروضة من المنافع والخيرات المتوفرة فيها؛ من أكل، وشرب، وأمن، وغير ذلك، فبدأ بذكر الأكل لأن المشقة فيه أكبر من الماء، لذا كانت العناية بتوفيره أكبر، ولم يكتف بذكر توفره وإنما أيضا نوعه، وجعله من أطايب الطعام من خلال التقييد بالحال في كل نوع مما ذكره حيث قال: (يؤكل فيها حيوان البر زكيا، وصيد البحر طريا، وثمر الأشجار جنيا)، ثم أتبع ذلك بذكر الماء لأنه أيضا من مقومات الحياة الأساسية، فذكر صفاءه بقوله: (ويشرب فيها الماء من شوائب الأقذار عريا)، ثم ذكر جمال جوها واعتداله، فقال: (ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا، فيبرئ من الأسقام عليلا، ويشفئ من الأوار غليلا)، والاسترواح بالهواء الطيب النقي مع أهميته لصحة الإنسان وسلامته؛ له أيضا دوره في اعتدال المزاج وراحة القلب والنفس، ويبدو أن هذا لم يكن متوفرا كثيرا؛ خاصة في الفسطاط ونواحيها في ذلك العصر[1]، ولذا اهتم بتصويره والتركيز عليه، فبين اعتداله بما يشبه الطباق في قوله: (صحيحا عليلا)، وأبرز أثره الفاعل في الأبدان بالطباق بين (يبرئ - الأسقام وعليلا)، مع شبه التناسب بين (يبرئ - يشفي)، وجعل جمله فيه نغما موقعا بالسجع مع الجناس في (عليلا - عليلا - غليلا)، ثم أتبع ذلك بأن نفئ ما يكون من شر الهواء بالسموم والحر والشعث فقال: (ساكنها قد وقي السموم والحرور، وأعفئ من شعث الكيمان والبرور)[2]، لكنه في الجمل السابقة كان يستعمل الجمل المضارعة ليدل علئ تجدد رزق أهل الجزيرة، وكان يعطف بينها لحسن المناسبة، أما هنا فقد عدل إلئ استعمال الجملة الاسمية ليدل

(١) - ينظر التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتئ الآن. ٦ وما بعدها. أيمن فؤاد السيد. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. ط١. ١٩٩٧م.

(٢) - كان مكانا فضاء تلقئ فيه أتربة القاهرة لتمنع السيول، ينظر المواعظ والاعتبار. ٢/ ٢٠٩.

علىٰ دوام الوقاية فيها من ذلك كله، ولقوة التأكيد فيها بتكرار الإسناد من جهة اشتمالها علىٰ خبر فعلي به ضمير يعود علىٰ المسند إليه، وزاد هذا التأكيد تأكيدا بدخول (قد) التي تفيد تحقق الوقوع.

ثم انتقل لذكر فضل موقعها وما يحظىٰ به ساكنها من مزايا وخصوصية، فقال: (وهي خفضة في ربوة) فجمع لها بهذا الطباق مزايا كل، ذلك أنها بوقوعها في الماء لا يحتمل لها مشقة الصعود، وهي في ذات الوقت كانت تعد مرتفعة عن مناطق أخرىٰ كالجزيرة الوسطىٰ التي كان الماء يطغىٰ عليها عند الفيضان، وكبعض مناطق القاهرة والفسطاط في ذلك الوقت، ولوقوعها في النيل أيضا مزية أخرىٰ عبر عنها بقوله: (وجمعية في خلوة)، أي أنها تجمع بين هدوء المكان وأنسه في نفس الوقت، ولغرابة الطباق عاد فأوضح ما أبهم في هذا الكلام فقال: (ترىٰ المارين في البر والبحر وأنت عنهم في بعد، وتشاهد وأنت معتزل من كان في انحدار أو صعد)، فاستعمل ضمير الخطاب ليقرب المسافة بينه وبين المخاطب ويضع السامع في الموقف حتىٰ يتخيله وكأنه صار حقيقة له، خاصة مع تكرار الخطاب من جهة؛ واستعمال المضارع الذي يعين علىٰ استحضار الصورة ومعايشتها من جهة، وطابق بين (البر – البحر) و(انحدار – صعد) ليشمل الأنس بمختلف الأشكال، وجاء بالجملتين الحاليتين (وأنت عنهم في بعد – وأنت معتزل) اسميتين ليبين عدم انقطاع ذلك، واعتناء بتأكيد عدم المخالطة كرر الحال في الجملة الثانية – وهو قريب من معنىٰ الحال في الجملة الأولىٰ –؛ وقدمه علىٰ المفعول به.

ثم ذكر أمن ساكنها وتحصنه فيها سواء من ثقيل يفرض نفسه فيضيق به الصدر، أو من طارق لا يؤمن شره، فقال: (وأنت متحصن من الثقلاء بقلعة حولها من الماء خنادق، ومن تمام حسنها تعدد أبواب بيوتها ففيها مخلص عند مجيء الطارق)، فشبه الآمن فيها من الثقلاء وهي بهذا الموقع في مجرىٰ النيل بالآمن علىٰ نفسه في

قلعة تحوطها خنادق مليئة بالماء فلا يستطاع الخلوص إليه، ثم ذكر ميزة في عمارتها وتصميم البيوت فيها؛ وهي تعدد أبوابها، وبين أن وجه الحسن في ذلك تيسر الهروب عند خوف ورود الشر أو الأذىٰ، فقدم (من تمام حسنها) للتشويق ولفت الانتباه، وبين العلة في ذلك باستعمال الفاء في عطف جملة (ففيها مخلص...).

ثم بعد أن فصل بعض النعم أجمل باقيها وذكر أنها تفوق الحصر بقوله: (وكم لله علىٰ ساكنها من من لا يحصي العاد ضبطه، وكم تلا عليه لسان النعمة أن اشكروا لله علىٰ ما أولاكم وزادكم في الخلق بسطة)، فاستعمل (كم) الخبرية للتكثير هذه النعم، ووصف إنعام الله علىٰ ساكن جزيرة الروضة بجملة (لا يحصي العاد ضبطه)، فذكّر بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (١)، ثم علىٰ سبيل الاستعارة جعل للنعمة لسانا تعظ به مبالغة في ظهورها وفيضها علىٰ ساكني الجزيرة حتىٰ طالبتهم النعمة ذاتها بشكر الله علىٰ ما أفاضه عليهم وبسطه فيهم من نعمه، وجملة (وزادكم في الخلق بسطة) مقتبسة من القرآن الكريم(٢)، تعيد للأذهان ذكرىٰ قوم عاد وما أفاضه الله عليهم من النعم.

ثم انتقل لتفنيد ما قيل عن عيوب الروضة(٣)، فقال: (فإن قيل لها من الناموس شين، فقل لا بد منه لدفع العين، وقد قيل:

يـا ليلـة غـرّدتْ فيهـا البعـوضُ وقـد ... "طـاروا إلـيّ زرافـاتٍ ووحـدَانَا

يصـرعْنَ ذا اللّـبِ حتـىٰ لا حَـرَكَ بـه ... وهـن أضـعفُ خَلـقِ الله أركانَـا

(١) – وردت في سورة النحل الآية ١٨، وفي سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٢) – الأعراف. ٦٩.

(٣) – لم يتعرض السيوطي لذكر عيوب الروضة إلا بعد أن مكن لها في القلوب بذكر مميزاتها ورغب فيها بكل الطرق.

فإن قيل ويخلفه عند انقضائه أذىٰ البراغيث، وذلك إذا البر أغيث، فقل:

لا تكـــــرهِ البرغـــــوثَ إن اســـــمَهُ بِـــــرٌّ وغـــــوثٌ لـــــك لـــــو تَـــــدرِي

فبُّـــــره مَـــــصُّ دَمٍ فَاســـــدٍ والغَـــــوثُ إيقاظُـــــه لـــــك في الفجـــــرِ

فقد عمد إلىٰ تقليل عيوب الروضة بعدة طرق، فالسيوطي لم يتعرض لذكر هذه العيوب إلا بعد أن مكن للروضة في القلوب بذكر مميزاتها، ورغب فيها بكل الطرق، فدخل ذكر العيب علىٰ الأسماع وهو مرفوض فلم يتجاوز الآذان، كما أنه لم يذكر من عيوب جزيرة الروضة إلا وجود البعوض والبراغيث، وهذا عيب شائع في كل مكان يجتمع في الماء والنبات، ويكاد لا يحترز منه إلىٰ الآن، وقد صاغ كلامه عن ذلك العيب بشكل فكاهي علىٰ سبيل التمليح وإشاعة روح الدعابة ليقلل من أثره في نفوس السامعين، ففي قوله: (فإن قيل لها من الناموس شين، فقل لا بد منه لدفع العين) استعمل (إن) الشرطية ليقلل احتمالية هذا القول، وفيه إيهام التناسب لدلالة اللفظين (شين – عين) علىٰ الحرفين الهجائيين (ش – ع)، وإن كان استعمل (شين) بمعنىٰ قبح، واستعمل (عين) التي تعد نوعا من الحسد أو قريبة منه، لكنها تكون من إعجاب لا عن بغض أو شر؛ وتقع من الصالح وغيره؛ وليس فيها تمني زوال النعمة؛ حتىٰ إنها تقع من الإنسان علىٰ نفسه وماله ومن يحب[1]، فكأنه يفترض لوجود البعوض بالجزيرة سببا هو دفع أثر العين عنها، والعين إنما تقع عن إعجاب؛ مما يعني أن الروضة حصل فيها من الجمال ما فاق غيرها فاستجلب العين مما استوجب دفع أذاها، ففيه حسن تعليل قلب العيب دليلا للتميز، واجتماع كلمات (الناموس – شين – عين)[2] يلفت أيضا إلىٰ مصطلحات الصوفية

(١) – ينظر العين حق. محمد بن سنجاب الأثري. دار التقوىٰ للنشر والتوزيع – مصر. بدون.

(٢) – تستخدم الصوفية ألفاظا خاصة لدلالة علىٰ معان تخص مذهبهم وطريقتهم، بحيث تنكشف لهم معانيها، وتستر علىٰ من باينهم غيرة منهم علىٰ أسرارهم، ومنهم من استعمل

وطريقتهم في التعبير، وكأنما يوجه السيوطي دعوة لهم ينبههم فيها إلىٰ أن الجزيرة أهل لسكناهم بها وأن بها من الأجواء والمميزات ما يعينهم علىٰ بلوغ مرادهم، خاصة مع استشهاده بأبيات لكبار الصوفية في أكثر من موضع، أو يوجه دعوة للاطلاع علىٰ مذهبهم لمن يصلح منه ذلك من خلال إثارة الحيرة والتشوق لمعرفة مدلول ألفاظه مما يساعد علىٰ نشر مذهبهم وزيادة أتباعه، ثم أضاف بعد ذلك بيتين هما:

يـا ليلـة غـرّدتْ فيهـا البعـوضُ وقـد ... "طـاروا إلـيّ زرافـاتٍ ووحـدَانَا

يصـرعْنَ ذا اللّـبِ حتـىٰ لا حَـرَكَ بـه ... وهـن أضـعفُ خَلـقِ الله أركانَـا

فاستعمل (يا) في (يا ليلة) للتنبيه ولفت الانتباه[1]، وجعل طنين البعوض تغريدا علىٰ يسبيل الاستعارة التمليحية، وضمن الشطر الثاني علىٰ سبيل الإيداع أو الرفو[2] من قول بعض شعراء بلعنبر[3]:

---

الحروف الهجائية رموزا لمعانيهم، فجعلوا لكل حرف دلالة نختص به، ينظر الرسالة القشيرية. ١/ ١٥٠. عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري. تح. الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف. دار المعارف- القاهرة، الرمزية الحرفية في العرفان الصوفي. ١٠ وما بعدها. طارق زيناي. مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية. مجلد ١٢. عدد ٢٤. ٢٠١٩م.

(١) - لأنها إما داخلة علىٰ الجملة الاسمية بعدها، أو داخلة علىٰ (رب) محذوفة، وهذا أرجح عندي.

(٢) - تضمين المصراع فما دونه يسمىٰ إيداعا أو رفوا، ينظر الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح للإمام أبي المعالي جلال الدين الخطيب القزويني. ٢٣٥. راجعه عماد بسيوني زغلول. مؤسسة الكتب الثقافية. ط٣.

(٣) - شرح ديوان الحماسة. ٢٣. أبو علىٰ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني. تح. غريد الشيخ. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. ط١. ٢٠٠٣م.

قــوم إذا الشــر أبــدىٰ ناجذيــه لهــم  طــاروا إليــه زرافــات ووحــدانا

فإذا كان (طاروا) في البيت الأصلي استعارة فهي هنا حقيقة في وصف البعوض، ثم ضمن البيت الثاني كله علىٰ سبيل الاستعانة[١] ونقله من الغزل إلىٰ وصف فعل البعوض، فجاء (يصرعن) يصور ما يصيب المرء من البعوض علىٰ سبيل المبالغة، وأضاف مفارقة طريفة حيث جاءت الجملة الحالية من (يصرعن) قوله: (وهن أضعف خلق الله أركانا) في تشكيل لطيف يلحق بالطباق.

وعلىٰ نفس النمط تقريبا جاء قوله: (فإن قيل ويخلفه عند انقضائه أذىٰ البراغيث، وذلك إذا البر أغيث، فقل:

لا تكــــرهِ البرغــــوثَ إن اســــمَهُ  بِــــرٌّ وغــــوثٌ لــــك لــــو تَــــدرِي

فبُّــــــره مَــــــصُّ دَمٍ فَاســــــدٍ  والغَــــوثُ إيقاظُــــه لــــك في الفجــــرِ

فاستعمل (إن) الشرطية والفعل المبني للمجهول، واستعمل التضمين وحسن التعليل، كما استعمل الجناس في (البراغيث – البر أغيث) فقيد وجود البراغيث فيها بزمن غيث البر – أي بالماء – وربط بينهما لفظيا ليوقع لها في النفوس أثرا محببا بارتباطها بلفظ محبب وهو الغيث، وجانس بين (برغوث – بر وغوث)، ثم أوضح ما أبهم في الكلمتين (بر – غوث) في البيت الثاني حيث فسر البر بأنه بما يفيده من مص الدم الفاسد من جسم الإنسان، وفسر الغوث بأنه بسبب الإيقاظ للصلاة، وكأنه ينجيه من فواتها[٢]، فتولد من اجتماع ذلك حسن تعليل ليجعل وجود

(١)– تضمين البيت فما فوقه يسمىٰ استعانة، ينظر الإيضاح. ٢٣٥.

(٢) – كان السابقون من أهل الصلاح يعدون فوات وقت الصلاة مصيبة، تصل الحسرة عليها إلىٰ الحد الذي يحتاج تعزية الإخوان والصحب، بلغنا الله هذه الدرجة من الهم بالآخرة.

البرغوث أمرا مقبولا، وقد أخذه من بعض الآثار التي وردت في النهي عن سب البرغوث لما تسببه من إيقاظ لذكر الله أو لصلاة الفجر(١).

بناء علىٰ ما ورد في هذا الجزء من الأساليب البلاغية يرىٰ القارئ الكريم أن السيوطي استطاع أن يقدم عدة تقنيات من تقنيات الدعاية المعروفة حاليا، منها: أسلوب الاستفادة من الشخصيات اللامعة حيث أشار إلىٰ أن الروضة كانت اختيار القادة وكبار رجال الدولة والعلم والدين، فحرك في النفوس حب التشبه والتطلع لمجاراتهم ومجاورتهم، ومنها أسلوب ادعاء الإجماع؛ حيث جمع أغلب فئات الشعب في إسناد سكنىٰ الجزيرة إليهم، وأيد ذلك بالطباق بين ذوي صفات متضادة بحيث يجد المخاطب أن الجزيرة حوت أصناف الناس مهما كانوا، فيقع في نفسه مجاراتهم بما يعرف بأسلوب السير مع الركب، ومنها أسلوب التوصية من مختص، فإنه لما ذكر أن الجزيرة كانت مفرا للصوفية والزهاد؛ قرن ذلك بتضمين أبيات لعمر بن الفارض، وكذا لما ذكر التعبد والتبتل والوصول إلىٰ مقام المشاهدة ضمن أبياتا للسيد محمد وفا، وكلاهما من كبار الصوفية، فكانت أبياتهما كالشهادة والوثيقة المؤيدة لسكنىٰ الجزيرة.

ومن طرق الدعاية أيضا الواردة هنا أسلوب إشباع الاحتياجات، وقد ظهر بشكل واضح في تقسيمه النشاطات بالتفريق والمقابلة، وإحداثه المفارقات بالجناس والتورية وغيرها كما سبقت الإشارة إليه، وكذا جرىٰ الأمر في عرض وفرة ما قد يحتاجه المرء من المؤن والأمن وغير ذلك في جزيرة الروضة.

(١) – ينظر في هذا غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب. ٢/ ٤٩. محمد بن أحمد بن سالم السفاريني. مؤسسة قرطبة. ط٢. ١٩٩٣م.

ومنها أسلوب إبدال الفكر من خلال الأساليب التي ورد في الأبيات المضمنة لابن الفارض والتي من خلالها أسقط مكانة دمشق، وقدم عليها مصر ومشتهاها، وأيضا من خلال الأساليب التي فرق بها بين أهل الطاعة وغيرهم، ومن خلال أساليبه في عرض عيب الجزيرة، وقد تضافر معه أسلوب التقليل في التقليل من شأن دمشق، ومن شأن أهل الهوىٰ، وأيضا في التقليل من عيب البعوض والبرغوث، وهذا صحبه أسلوب التحريف من خلال التلاعب بالمعلومات، وأيضا أسلوب النكتة والتشويش.

هذا إلىٰ جانب الأسلوب الديني، والأسلوب الغنائي، وأسلوب الاستشهاد بالأقوال المأثورة علىٰ نحو ما مر سابقا.

## المبحث الخامس

### خاتمة المقامة

وبعد هذه الرحلة الممتعة الزاخرة بألوان الجمال، من مظاهر الطبيعة، وأشكال العمران، وطرائق الحياة، وصنوف البشر من قادة وعلماء عباد وغيرهم، – بعد كل هذه الرحلة – يسوق السيوطي حديثا عن النيل وفضله علىٰ العموم، وفضل جيرته للروضة، وما نالها من الشرف بسبب ذلك، وبسبب احتوائها علىٰ المقياس وما يجري فيها من الاحتفالات بفيضان النيل، فيقول:

ويحيط بأرجائها النيل، وما أدراك ما النيل؟!، سيد الأنهار، والمُسخرُ له جميع مياه الأرض تمده في الزيادة كما ورد في الآثار، أصل منبعه من الجنة، وسمىٰ في القرآن باسمه دون غيره، ونطقت به السنة، وهو في الجنة نهر العسل، ويرفعه جبريل عند رفع القرآن، ومن لم يعرف فليسل.

وهو الذي كاتبه عمر بن الخطاب لما حمل أهل مصر الإصر، فكتب له بطاقة صدرها "من عبد الله عمر بن الخطاب إلىٰ نيل مصر".

ديـــارُ مصـــرَ هـــي الـــدُّنيا وســـاكِنُها ... هـــمُ الأنـــامُ فقابلهـــا بتفضـــيلِ

يـــا مَـــنْ يُبـــاهي ببغـــداد ودجلتِهـــا ... مصـــرُ مُقدِّمـــةٌ والشـــرحُ للنيـــلِ

وله أصابع ليس في الأيادي من يطاولها، ومتىٰ رامت عيون الشام أن تفاخره كان لكل عين أصبع منه يقابلها، ولله در القائل:

زادتْ أصـــــــابِعُ نيلِنـــــــا ... وطمـــــتْ فأكمـــــدتِ الأعَـــــادي

وأتـــــــتْ بكـــــلِّ مَســـــرةٍ ... مـــــا ذي أصـــــابعَ ذي أيـــــادي

وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم هو لها يوم عيد، طالعه في برج السُّنبُلة والحوت للمشتري سعيد، وهو يوم الزينة، وما أدراك ما يوم الزينة؟، يوم

يحشر له الناس، ويحج فيه إلىٰ المقياس، وتطيب من تخليقه وتحليقه الأنفاس، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو، وفي الحقيقة هو خلعة رضا ولباس، وتُكمد الحساد، وتجتمع الأضداد، فيحصل الصفاء إذا انكدر، والجبر إذا انكسر، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل، ويسحب الماء علىٰ بساط الأرض الذيل، ويركب إليه الملك والجنود، وتعقد له الألوية والبنود، ويكون للناس من مائه ولونه المحمر الورود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وله في كل سنة أجل معدود، قال الشاعر المشهور:

لله يَـومُ الوَفَـاء والنـاسُ قـد جُمِعُـوا كـالرَّوضِ تطفُـو علـىٰ نهْـر أزَاهـرُهُ

وللوَفَـاءِ عَمُـودٌ مـن أصَـابِعِهِ مُخلّـقٌ تَمـلُأ الـدُّنيا بَشَـائِرُهُ

ربط السيوطي حديثه عن الروضة بما سيقوله عن فضل النيل بقوله: (ويحيط بأرجائها النيل)، فبين علاقته بها وإحاطته لها، فهي جارته وفي حمايته، وجعل ذلك متكأ بنىٰ علي الاستفهام الذي للتفخيم والتهويل، فقال: (وما أدراك ما النيل؟)، وهذا الاستفهام يمثل انعكاسا قويا لما يجده السيوطي في نفسه تجاه هذا النهر العظيم، وقد أراد به تحريك عقول المخاطبين واستثارة عواطفهم ليشاركوه ما يجد من مشاعر تجاه النيل، حيث عمل الاستفهام علىٰ إحداث ما يشبه الهزة في عقل المتلقي، بحيث يجعله يعيد النظر فيما يعرفه عن هذا النهر العظيم، ويحشد في عقله كل ما ورد عليه من معلومات عنه، ويستجمعها سريعا في ذهنه، فينبع من داخله هذا التعظيم المنشود، وقد تآزر معه استعماله لضمير الخطاب الذي توجه به لمخاطب غير معين مما أفاد عمومية الخطاب في استفهامه حتىٰ يشمل كل من يتأتىٰ مخاطبته به علىٰ سبيل البدل لا التناول دفعة واحدة، وفي ذلك ما يشعر بأهمية مضمون

الخطاب وأنه جدير بأن يكون ذائعا، وهذا الأسلوب مما يأتي في مواطن الثناء والتنويه[1].

ثم قال: (سيد الأنهار، والمسخر له جميع مياه الأرض تمده في الزيادة كما ورد في الآثار، أصل منبعه من الجنة، وسمىٰ في القرآن باسمه دون غيره، ونطقت به السنة، وهو في الجنة نهر العسل، ويرفعه جبريل عند رفع القرآن، ومن لم يعرف فليسل.

وهو الذي كاتبه عمر بن الخطاب لما حمل أهل مصر الإصر، فكتب له بطاقة صدرها "من عبد الله عمر بن الخطاب إلىٰ نيل مصر".)، فاستأنف الجواب مع حذف المسند إليه مبادرة للمقصود من المدح بحيث تطرق هذه الأوصاف الأسماع عقب ذلك الاستفهام مباشرة فتقع في القلب متمكنة مستقرة لما يجده المخاطب فيها من تأكيد لما استجمعه في ذهنه قبلا، فيتأكد عنده فضل النيل، وما ذكره هنا إنما هو تلميحات لما في ورد عن فضل النيل في الأثر كما أشار، وهي كما يلي:

- سيد الأنهار والمسخر له ...: تلميح لما روي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فتمده الأنهار بمائها وفجر الله له الأرض عيونا فأجرته إلىٰ ما أراد الله ﷻ[2].

- أصل منبعه من الجنة: تلميح لحديث الرسول ﷺ (سيحان وجيحان، والفرات والنيل، كل من أنهار الجنة)[3].

(١) - ينظر خصائص التراكيب.١٩٣.

(٢) - ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ١/ ٩٥.

(٣) - صحيح مسلم. باب ما في الدنيا من أنهار الجنة. حديث رقم ٢٨٣٩. ٤/ ١٨٣.

- وهو في الجنة نهر العسل: تلميح لما ورد عن كعب الأحبار أن النيل هو نهر العسل في الجنة(١).

ـ وهو الذي كاتبه عمر بن الخطاب ...: فيه تلميح لقصة ضعيفة، ورد فيها أن المصريين كان من عادتهم إلقاء عروس جميلة مزينة بأنواع الحلي في النيل؛ ليستجلبوا رضاه ويجري بالماء، فلما دخل الإسلام مصر منع عمرو بن العاص ذلك، وصادف ذلك عدم وفاء النيل في ذلك العام، فأرسل عمرو بن العاص إلىٰ عمر بن الخطاب يستشيره في ذلك، فأقره علىٰ ما فعل وبعث له ببطاقة طلب منه أن يلقيها في النيل، وكان مكتوبا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين إلىٰ نيل مصر، أما بعد: فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فلما ألقىٰ عمرو بن العاص البطاقة في النيل أجراه الله(٢).

وقد رتبها بحيث ذكر سيادته علىٰ الأنهار أولا، ثم زاد علىٰ ذكر سيادته للأنهار ذكر تسخير مياه الأرض كلها لإمداده وزيادته في قوله: (والمسخر له جميع مياه الأرض تمده في الزيادة كما ورد في الآثار)، وكأنها كلها في خدمته؛ وخيرها كلها عائد اليه بتسخير رباني، وفصل قوله: (أصل منبعه من الجنة) عما قبله ليستأنف كلاما جديدا يشير فيه إلىٰ بعض ما ورد عن النيل في القرآن والسنة، ليقدم الأدلة النقلية علىٰ فضل النيل وتميزه علىٰ غيره، وكأنه يعود مرة أخرىٰ إلىٰ طريقة الاستدلال التي بدأ بها كلامه، وقد ذكر أن أصل منبعه من الجنة، ثم بين أنه يرفع وأنه يكون في الجنة أيضا، فهو من الجنة وسيعود إليها، فأي شرف بعد هذا

(١) - ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ١/ ٩٥.

(٢) - ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ١/ ١٠٩.

الشرف؟!، خاصة مع ما أشار إليه من ارتباط وجوده علىٰ الأرض بوجود القرآن، فإذا جاء آخر الزمان رفعهما جبريل عليه السلام معا.

ثم ضمن بيتين لعمر بن الوردي هما:

ديـــارُ مصـــرَ هـــي الـــدُّنيا وســـاكِنُها ... هـــمُ الأنـــامُ فقابلهـــا بتفضـــيلِ

يـــا مَـــنْ يُبـــاهي ببغـــداد ودجلتِهـــا ... مصـــرُ مُقدِّمـــةٌ والشـــرحُ للنيـــلِ

قصر فيهما الدنيا كلها علىٰ مصر، وقصر جنس الأنام علىٰ ساكنيها، فحقيقة ذلك لا تتعداهما، وما سواهما لا اعتداد به عنده، وقد أراد أن يبين أن لمصر منزلة مخصوصة بقوله: (فقابلها بتقبيل)، وعطفها بالفاء ليرتب ذلك علىٰ ما قبله، وبين (قابلها – تقبيل) جناس في أصل الاشتقاق، وقد أتي بهذه الجملة ليتمم بها البيت، وهي سخيفة، ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ خطاب من يفضل بغداد ونهر دجلة، فناداه بذلك ليلفته إليه، واستعمل الاسم الموصول وكأنه يشير إلىٰ المقارنة التي سيجريها ويحسمها لصالح مصر والنيل في رده الذي قال فيه (مصر مقدمة والشرح للنيل)، فهو تشبيه مركب مما يقابل فيه كل جزء بنظيره لكن لا يصح فيه فصل الأجزاء عن بعضها، والصورة تبين بوضوح فضل النيل وعظمته، فإذا كانت الدنيا كلها ما هي إلا ديار مصر، ومصر كلها ما هي إلا كمقدمة الكتاب، أما النيل فهو كالشرح والتفصيل، إذن فعظمة النيل مما لا يدرك كنهه ولا يحيط به الوصف، فجمع بذلك الاستدلال بأنواع النقول من قرآن، وحديث، وآثار وأشعار.

ومن جملة فخر النيل ذكر ما فيه من المقياس، وهو عجيبة من العجائب إلىٰ يومنا هذا، وقد ذكره مستخدما أساليب المجاز والتورية في قوله: (وله أصابع ليس في الأيادي من يطاولها)، فورىٰ بالأصابع والأيادي التي هي أجزاء من الجسم عن غيرها؛ فالأصابع هنا مجاز مرسل عن المقياس لعلاقة الجزئية، يريد ما في نهايته من علامات القياس، وقد اختار هذا الجزء خصوصا وعبر به لأن الماء متىٰ بلغه آذن

بالوفرة والرخاء، ولذا فإنه يرىٰ أنه لا يوجد من ينافس النيل عندئذ في العطاء الذي عبر عنه بالأيادي ليشاكل به الأصابع، ثم ذكر عيون الشام في قوله: (ومتىٰ رامت عيون الشام أن تفاخره كان لكل عين أصبع منه يقابلها)، يريد أن أقل زيادة منه في هذه الحال تزيد في الفضل علىٰ كل منبع من منابع ماء الشام، فاستخدم التورية في (عيون الشام – أصبع) علىٰ نفس النحو، وكنىٰ بذلك عن خصوصية النيل في الفضل وأنه لا يلحق في ذلك، وحسن المناسبة بين الألفاظ قوىٰ ما أراده من التخييل ومكنه في النفوس، وآزره بالمناسبة مع البيتين الذين استشهد بهما في تضمينه بعد ذلك حيث قال: (ولله در القائل[1]):

زادتْ أصـــــــابعُ نيلِنـــــــا وطمـــــتْ فأكمـــــدتِ الأعَـــــادي

وأتـــــــتْ بكـــــلِّ مَســـــرةٍ مـــــا ذي أصـــــابعَ ذي أيـــــادي

فإنه لما ذكر فيضان النيل ووفاءه بالماء علىٰ أحسن حال؛ أتبعه بذكر ما يترتب علىٰ ذلك من الرخاء؛ وما يكون له من احتفالات مميزة تختص بها الروضة لوجود مقياس النيل فيها دون غيرها، فقال: (وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم هو لها يوم عيد)، فقصر هذا العيد عليها ادعاء لأن أحداث ومظاهر الاحتفال بوفاء النيل كانت أغلبها فيها.

(١) – البيتان لابن نباتة المصري، والذي في الديوان: (وافت أصابع نيلنا)، (وأتت بكل جميلة)، ديوان ابن نباتة المصري. ١٦٣.

ثم وصف هذا اليوم بقوله: (طالعه في برج السنبلة[1] والحوت للمشترىٰ سعيد)، واجتماع هذه الألفاظ علىٰ هذا النحو يوحي بأن المقصود بها قراءة الحظ من خلال مطالعة الكواكب، فورىٰ بذلك عن طلوع الماء؛ الذي يترتب عليه زيادة السنابل والمزروعات وتوفر الأسماك، فينتج عن كثرة العرض انخفاض السعر، فيسعد بذلك المشترون، فالجملة كناية عن الرخاء الذي يعم البلاد عند وفاء النيل، وقد أضفت هذه التورية علىٰ الكلام تمليحا يتلاءم مع شيوع جو الاحتفالات الذي راح يصفه بعد ذلك، وقد بدأه بالتفخيم في قوله: (وهو يوم الزينة[2]، وما أدراك ما يوم الزينة؟)، فعلىٰ رأي من قال أنه يوم كسر الخليج يكون هو يوم الاحتفال الذي يتحدث عنه السيوطي، فهو يستعين بالامتداد التاريخي لهذا الاحتفال ليبين أهميته وخصوصيته من حيث استمرار الاهتمام به وبقائه عبر العصور، وعلىٰ رأي من قال أنه يوم آخر يكون قد شبه هذا بذاك، ثم جاء بأسلوب الاستفهام للتفخيم.

وأتىٰ بالجواب علىٰ نحو ما سبق تفصيله في مثيله، فحذف المسند إليه للمبادرة إلىٰ المقصود من المدح، وقد وصف هذا اليوم بعدة جمل اعتمد فيها علىٰ الفعل

---

(١)- برج السنبلة هو برج العذراء، ينظر سرور النفس بمدارك الحواس الخمس. أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي. هذبه: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور). تح. إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت-لبنانط١. ١٩٨٠م.

(٢) – ورد ذكر يوم الزينة في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ [سورة طه:٥٩]، وقد اختلف في هذا اليوم فقيل: "كان عيدا لهم ويوما مشهورا وصادف يوم عاشوراء وكان يوم سبت وقيل هو يوم كسر الخليج"، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي. عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت. ط١. ١٤٢٢هـ.

المضارع بشكل واضح؛ ليساعد المتلقي علىٰ استحضار الصورة وكأنما تجري أمامه، فيعاينها بخياله ويعايش أحداثها وما تبعثه من مشاعر وانفعالات، وراح يذكر تفاصيل الحدث من أول تحرك الناس وتوجههم لحضور الاحتفال، فقال: (يوم يحشر له الناس)، كناية عن شدة الازدحام واهتمام الناس بالحضور، وقال: (ويحج فيه إلىٰ المقياس)، فاستعمل (يحج) علىٰ حقيقتها اللغوية بمعنىٰ التوجه والقصد، لكنها حركت في الأذهان ما تحمله من دلالة اصطلاحية شرعية فضربت بذلك علىٰ وتر قدسي محبب.

ثم انتقل إلىٰ ما يخص الإعلان عن بلوغ ماء النيل الحد المطلوب، فقال: (وتطيب من تخليقه وتحليقه الأنفاس)، فكنىٰ بذكر التخليق[١] عن وصول الماء للحد المطلوب، ثم ذكره صراحة في (تحليقه) بمعنىٰ ارتفاع الماء، وجانس بين (تخليقه – وتحليقه) فربط بين الحدثين، وقال: (ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو)، ولوهلة قد يظن أن المقصود هنا هو المعنىٰ المجازي لتصوير إسباغ النعمة والخير بوفاء النيل علىٰ مصر، كما يقال لبست ثوب النعمة، لكن هذا هو المعنىٰ المورىٰ به، أما المعنىٰ المورىٰ به الذي قصده السيوطي فهو ما يكون من إسبال ثوب مخصوص علىٰ شباك المقياس إذا بلغ الماء ستة عشر ذراعا أو يزيد لتتباشر الناس بوفاء النيل[٢]، فإذا نقص النيل عن ذلك كان لا يسبل، ولذا قال: (بالعفو)، أي بسبب الزيادة، وهنا نكتة لطيفة حيث ورىٰ بالمعنىٰ المجازي عن المعنىٰ الحقيقي،

(١) – يقصد به ما كان يقوم به ابن أبي الرداد – صاحب المقياس – من دهن عمود المقياس وجوانب الفسقية بالمسك والزعفران وأنواع الطيب في الاحتفال بوفاء النيل، ينظر صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا. ٤/ ٤٩. أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري. دار الكتب العلمية، بيروت. بدون.

(٢) – ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٣/ ٣٢٤.

وقد أشار إلىٰ أنه يقصد المعنىٰ الحقيقي بقوله: (وفي الحقيقة هو خلعة رضا ولباس)، حيث أشار أيضا لما كان يخلعه الخلفاء والملوك في ذلك الاحتفال علىٰ صاحب المقياس والأمراء ووالي الفسطاط وغيرهم من الخلع والملابس بهذه المناسبة[1].

وكنىٰ عن بلوغ النعمة غايتها بقوله: (وتكمد الحساد)، وأراد تعجيب السامعين فمهد للمفارقات التي سيقدمها بقوله: (وتجتمع الأضداد)، ولذا استعمل الطباق مع التورية في قوله: (فيحصل الصفاء إذا انكدر، والجبر إذا انكسر)، حيث قصد بـ(الصفاء) صفاء العيش وراحة البال، وأراد بـ(انكدر) تعكر ماء النيل كناية عن فيضانه[2]، وأراد بـ(الجبر) ما يكون من جبر القلوب واطمئنانها، وأراد بـ(انكسر) فتح الخليج ليسير الماء في الترع والخلجان ويصل إلىٰ مختلف القرىٰ والبلدان[3]، وجانس في قوله: (ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل، ويسحب الماء علىٰ بساط الأرض الذيل) بين (النيل – النيل – الذيل) مع حسن التصوير بالاستعارة التي أضفت مزيدا من التعظيم علىٰ النيل.

---

(١) – ينظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ٢/ ٤١٢ وما بعدها.

(٢) –فإنه كان بسبب سرعة جريانه عندئذ يحمل الطمي من أعالي أفريقيا – وهو ما كان يحسن التربة المصرية ويجددها – واختلاط هذا الطمي بالماء كان يغير لونه ويجعله يميل إلىٰ الحمرة لبعض الوقت، إلىٰ أن يهدأ جريانه فيرسب الطمي ويصفو الماء، لكن هذا لم يعد يحدث بعد بناء السد العالي.

(٣) – وكان هذا من أهم مراسم الاحتفال، حتىٰ قيل إن الخليفة الفاطمي كان يسير إليه بنفسه ويبدأ هو بكسره فيضربه ثلاث ضربات بمعول من ذهب، ينظر متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني. ٣٠٨.

ثم ذكر موكب الملك وعظمته فقال: (ويركب إليه الملك والجنود، وتعقد له الألوية والبنود)، وكنىٰ به عن تعظيمهم لهذا اليوم وأهميته عندهم، ولفت الانتباه وركزه علىٰ هذه الأهمية بتقديم (إليه – له)، وكنىٰ عما يحمله النيل من التربة مرة أخرىٰ بقوله: (ويكون للناس من مائه ولونه المحمر الورود)، مع ما في ورود هنا من التورية التي رشحها بقوله: (من لونه المحمر)، وإنما أراد الورود الذي هو مصدر ورد الماء.

وتعظيما لهذا اليوم قال عنه: (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وله في كل سنة أجل معدود)، وهو اقتباس من القرآن الكريم، من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾[1]، لكنه غير في دلالته وفي الآية الثانية قال: (وله في كل سنة) بدلا من أصل الآية، وعلىٰ كل فهو يلائم ذكر الحشر قبل ذلك ثم ختم المقامة بتضمين قول الشاعر[2]:

لله يَـومُ الوَفَـاء والنـاسُ قـد جُمِعُـوا ... كـالرَّوضِ تطفُـو علـىٰ نهْـر أزَاهـرُهُ

وللوَفَـاءِ عَمُـودٌ مـن أصَـابِعِهِ ... مُخلّـقٌ تَمـلُأ الـدُّنيا بَشَـائِرُهُ

وفيهما يتعجب[3] من يوم الوفاء وما يكون فيه من الاحتفالات وتجمع الناس تعظيما وتفخيما، ويزيد ذلك بجمال صورته التشبيهية؛ حيث شبه الناس وتموجهم

---

(١) – هود. ١٠٣، ١٠٤.

(٢) – البيتان منسوبان لبدر الدين الصاحب، في حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات. ٢٩٨. لشمس الدين محمد بن الحسن النواجي، المطبعة الأميرية– القاهرة، ١٩٣٨م.

(٣) – هذا الأسلوب ليس من أساليب التعجب الاصطلاحية أو المبوب لها في علم النحو. وإن كان العلماء ذكروه صراحة باعتباره أسلوب تعجب، وربما اعتبروا أن الكلام في باب

في هذا اليوم بسبب الكثرة والازدحام بروض به نهر تطفو عليه الأزهار، ثم قال إن وفاء النيل بالقدر المطلوب يعرف بعمود المقياس وبلوغ الماء علامات الأصابع بعد الأذرع فعندها تملأ الدنيا بشائر هذا الخير، وتضمين البيتين بما فيهما من حسن صورة الروض والأزهار وذيوع البشائر والأفراح يعد من حسن الانتهاء في هذا المقام علىٰ خير وجه.

وقد ورد في بعض النسخ المخطوطة الانتهاء بالحمد؛ والصلاة والتسليم علىٰ النبي ﷺ، لكن لم يثبت ذلك كل من محقق بلبل الروضة أو شارح المقامات، وإنما اكتفيا بالإشارة لذلك في الهامش.

وبعد، فقد تشكلت من هذه الأساليب البلاغية عدة تقنيات دعائية منها: الأسلوب الديني الذي بدا واضحا لأكثر من مرة من خلال التلميح والاقتباس، ومنها التقليل من بغداد وعيون الشام، ومنها أسلوب التهويل والمبالغات وقد ورد أكثر من مرة أيضا بالاستفهام وضمير الخطاب، كما ورد في الكنايات والمجازات وما صاحبها من فنون بديعية؛ نحو ما ورد من حديث أصابع النيل وأياديه، وركوب الخليفة وجنوده وغير ذلك، ومنها الاستفادة من الأساطير الدينية والتاريخية كما ورد في التلميح بذكر قصة بطاقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي أرسلها إلىٰ النيل، والتورية بذكر الطالع والبروج التي شكلت كذلك أسلوب النكتة.

ومنها أسلوب الاستفادة من الشخصيات اللامعة بالتلميح لقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكر ركوب الملك وجنوده ضمن مراسم الاحتفال بوفاء النيل وما

---

الحروف والتقديم يغني عن إفراده بالبحث، ينظر شرح قطر الندىٰ وبل الصدىٰ. ٣٢٠. عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام. تح. محمد محيىٰ الدين عبد الحميد – القاهرة.ط١١. ١٣٨٣هـ.

تضمنه من كناية، وأسلوب رسم الصور الذهنية عن طريق تصوير مراسم الاحتفال بوفاء النيل، وما ترتب عليه من بث روح التفاؤل، هذا إلىٰ جانب الاستشهاد بالأقوال المأثورة من خلال التلميحات والاقتباسات والتضمينات، والأسلوب الغنائي بما توفر من موسيقىٰ داخلية وخارجية من خلال أساليب الجناس والسجع وحسن التناسب والتورية والطباق وغير ذلك.

## الخاتمة

**بعد هذه الرحلة مع السيوطي فيما أبدعته قريحته عن جزيرة الروضة، وصلت هذه الدراسة إلى نتائج من أهمها:**

**- تنوعت الأساليب البلاغية التي استعملها السيوطي في مقامة (بلبل الروضة)، وكان أكثرها ورودا وظهورا الأساليب البديعية؛ خاصة السجع والجناس، ومراعاة النظير، والتورية، والطباق، والمقابلة، والتلميح، إلىٰ جانب توشيح كلامه بالاقتباس، والتضمين، ومصطلحات العلوم.**

**- اعتمد السيوطي علىٰ تغيير السجعة بين الفقرات أو بين الجمل بحيث تختلف السجعة عند انتقاله إلىٰ نقطة جديدة، فتمثل بذلك تنبيها للمخاطب إلىٰ هذا الانتقال.**

**- جعل السيوطي في نهاية كل فقرة تقريبا تضمينا شعريا يؤكد ما اشتملت عليه من المعاني أو يناسب جزءا منها، وبجانب وظيفة التوكيد هذه عمل هذا الأسلوب أيضا علىٰ تجديد انتباه المتلقي ونشاطه.**

**- كثيرا ما شكلت أساليب السيوطي - خاصة فنون البديع - هنا ملحا وطرائف، عملت علىٰ إشاعة جو من البهجة والتفاؤل محبب للنفوس، يتناسب مع الصورة الذهنية التي يريد تمكينها في القلوب عن الروضة.**

**- كان لفنون البديع في المقامة دور بارز في تشكيل إيقاع طيب ونغم عذب يسهل حفظها وبقاء أثرها في النفوس.**

**- تنوعت الصور البيانية في المقامة بين تشبيه ومجاز وكناية، وكان منها القديم ومنها المبتكر، وكان الغرض منها في أغلب الأحوال تزيين الروضة والترغيب فيها،**

أو التقليل من أماكن أخرىٰ قد يظن أنها تنافسها جمالا أو منزلة، وذلك لرسم صورة ذهنية متميزة عنها لدىٰ المتلقي.

- جاءت أغلب أساليب المقامة خبرية، وصحبتها بعض الأساليب الإنشائية التي عملت علىٰ إثارة انفعالات المتلقي وتحريك مشاعره وعواطفه نحو تعظيم الروضة وما يتعلق بها في مختلف أحوالها.

- كثيرا ما وظف السيوطي الاستئناف هنا ليبدو وكأنه يعدد أحوالا ونقاطا يحصي بها فضائل الروضة.

- تشكلت من الأساليب البلاغية في مقامة (بلبل الروضة) تقنيات دعائية متنوعة، منها ما كان يتكرر كثيرا من بداية المقامة إلىٰ نهايتها ومنها ما هو أقل ورودا من ذلك.

- من أساليب الدعاية التي تكررت في المقامة بشكل ملحوظ الأسلوب الديني، والأسلوب الغنائي، والأسلوب العلمي، والاستشهاد بالأقوال المأثورة، وأسلوب الصور الذهنية، وأسلوب التضخيم والتهويل والمبالغات، وأسلوب التجديد، وأسلوب التكرار، وأسلوب الاختيار- واسلوب النكتة.

- ومن أساليب الدعاية التي كانت أقل ورودا مما سبق أسلوب تسمية الأشياء بغير أسمائها، والشعارات، وأسلوب إبدال الفكر، وأسلوب التقليل، وأسلوب التحريف، وأسلوب الحذف، وأسلوب ادعاء الإجماع، وأسلوب إشباع الحاجات، والاستفادة من الشخصيات اللامعة، وتوصية وشهادة المختص.

**هذا، والله ولي التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**

# ثبت المصادر و المراجع

**أولاً القرآن الكريم**


١. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تح/ أحمد بن علي، دار الحديث – القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

٢. أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تح. محمد رشيد رضا ، مكتبة المنار، بدون.

٣. الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، تح/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٤. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٥. أمثال العرب، المفضل بن محمد بن يعلىٰ بن سالم الضبي، تح/ إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.

٦. الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح للإمام أبي المعالي جلال الدين الخطيب القزويني، راجعه عماد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣.

٧. بلبل الروضة، جلال الدين السيوطي(ت ٩١١هـ)، تح. نبيل محمد عبد العزيز أحمد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م.

٨. تحقيق الفوائد الغياثية. محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني، تح. علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، ط١٤٢٤،١هـ.

٩. التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي، تح. حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا – الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

١٠. التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتىٰ الآن، أيمن فؤاد السيد، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٧م.
١١. تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ابن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.
١٢. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ت ٧٧٤ ه ، تح/ سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.
١٣. تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. ٤٢. للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن ـ قرأه وكتب حواشيه وقدم له د.ياسين الأيوبي ـ المكتبة العصرية صيدا – بيروت ط١، ٢٠٠٢م.
١٤. جامع الدروس العربية،مصطفىٰ محمد سليم الغلاييىنىٰ. المكتبة العصرية. – بيروت، ط١٩٩٣،٢٨م.
١٥. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تح/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢. ١٩٦٤م.
١٦. جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور،جمع/ محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس للنشر والتوزيع – الأردن، ط١، ٢٠١٥م.
١٧. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، السيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه – مصر، ط١، ١٩٦٧م.
١٨. حلبة الكميت في الأدب والنوادر والفكاهات المتعلقة بالخمريات، لشمس الدين محمد بن الحسن النواجي، المطبعة الأميرية– القاهرة، ١٩٣٨م.

١٩. الحيوان ،لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح. عبد السلام هارون،شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٩٦٢م.
٢٠. خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، محمد محمد أبو موسىٰ، م وهبة، ط٦، ٢٠٠٤م.
٢١. دراسة في البلاغة والشعر، محمد محمد أبو موسىٰ، م وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
٢٢. الدعاية والاتصال الجماهيري عبر التاريخ، حضارات الشرق القديمة.. برهان شاوي. دار الفارابي. بيروت – لبنان. ط١. ٢٠١٢م.
٢٣. الدعاية والإقناع، الأسس النظرية والتطبيقية، عاطف عدلي العبد. دار الفكر العربي. ٢٠٠٧م.
٢٤. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مكتبة الأسرة ،٢٠٠٠م.
٢٥. ديوان ابن الفارض، أبي حفص عمر بن أبي الحسن، المتوفَّىٰ (٦٣٢هـ)، شرح رشيد بن غالب الدحداح، مطبعة شركة الفعلة، مرسيلية، ١٨٥٣م.
٢٦. ديوان ابن اللبانة الداني،٧٦، تح/ محمد مجيد السعيد. دار الراية للنشر والتوزيع. عمان – الأردن، ط٢، ٢٠٠٨م.
٢٧. ديوان ابن قلاقس ،راجعه وضبطه خليل مطران. مطبعة الجوانب – مصر. ١٩٠٥م.
٢٨. ديوان ابن نباتة المصري، جمال الدين بن نباتة المصري الفاروقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، بدون.
٢٩. ديوان البحتري، تح. حسن كامل الصيرفي، دار المعارف مصر، ط٣.
٣٠. ديوان تقي الدين السروجي ما تبقىٰ من شعره وموشحاته، جمع وتحقيق ودراسة د. نبيل محمد رشاد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١. ٢٠١١م.

٣١. ديوان صفي الدين الحلي ، تح. حبيب بن إبراهيم بن خالد اللباني العثماني، مطبعة حبيب أفندي خالد – دمشق،١٣٩٧هـ.
٣٢. ديوان عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد الصقلي. طبعه وصححه/ جلستينو سكيباريللي،روما – إيطاليا،١٨٩٧م.
٣٣. ديوان محمد وفا الشاذليّ الشاعر الصوفيّ ، تحقيق ودراسة وشرح مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠١٦م.
٣٤. الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تح. عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف. دار المعارف– القاهرة. بدون.
٣٥. الرمزية الحرفية في العرفان الصوفي ، طارق زيناي، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، مجلد ١٢، عدد ٢٤، ٢٠١٩م.
٣٦. سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، هذبه: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، تح. إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت–لبنان ط١، ١٩٨٠م.
٣٧. شرح الإمام الفارضي علىٰ ألفية ابن مالك، العلامة شمس الدين محمد الفارضي الحنبلي، أبو الكميت، محمد مصطفىٰ الخطيب. دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط١. ٢٠١٨م.
٣٨. شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي أبو البقاء موفق الدين الأسدي الموصلي المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، تق. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١. ٢٠٠١م.
٣٩. شرح ديوان الحماسة، أبو علىٰ أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، تح. غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١. ٢٠٠٣م.
٤٠. شرح قطر الندىٰ وبل الصدىٰ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن

يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام. تح. محمد محيىٰ الدين عبد الحميد – القاهرة،ط١١، ١٣٨٣هـ.

٤١. شرح مقامات جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح. سمير محمود الدروبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون.

٤٢. شروح التلخيص وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني علىٰ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ومواهب الفتاح بشرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي وعروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ، دار الهادي ، بيروت لبنان ، ط٤، ١٩٩٢م .

٤٣. صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، دار الكتب العلمية، بيروت. بدون.

٤٤. الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تح. أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين. بدون.

٤٥. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها،١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥م

٤٦. علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م.

٤٧. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علىٰ الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م.

٤٨. العين حق، محمد بن سنجاب الأثري، دار التقوىٰ للنشر والتوزيع – مصر. بدون.

٤٩. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، مؤسسة قرطبة، ط١٩٩٣،٢م.

٥٠. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح. محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر. بدونز
٥١. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، راجعه أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٥٢. اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين،تح. عبد الإله النبهان، دار الفكر – دمشق، ط١، ١٩٩٥م.
٥٣. لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان،ط٣، ١٩٩٩م.
٥٤. متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، محمد الششتاوي، الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
٥٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تح. عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت. ط١. ١٤٢٢هـ.
٥٦. المزهر في علوم اللغة وأنواعها ،عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تح. فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت.ط١، ١٩٩٨م.
٥٧. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيىٰ بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين. المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١. ١٤٢٣هـ.
٥٨. المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني ويهامشه حاشية المير سيد شريف، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٣م.
٥٩. معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد أبو الفتح العباسي، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت. بدون.

٦٠. معجم الصواب اللغوي، أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل. عالم الكتب، القاهرة. ط١. ٢٠٠٨م.
٦١. معجم القواعد العربية في النحو والتصريف وذيل الإملاء، عبد الغني الدقر، دار القلم – دمشق، ط١. ١٩٨٦م.
٦٢. معجم المصطلحات الإعلامية. ، لجنة ألفاظ الحضارة. مجمع اللغة العربية – القاهرة. ٢٠٠٨م.
٦٣. المعجم الوسيط، إبراهيم انيس وآخرون، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
٦٤. معجم مصطلحات العلوم الشرعية مجموع من المؤلفين. مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. الرياض، ط٢، ٢٠١٧م.
٦٥. مغني اللبيب عن شرح الأعاريب، للإمام أبي محمد عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت، ١٩٨٧م.
٦٦. مقامات الحريري، أبي القاسم بن علي الحريري، تح/ عيسىٰ سابا، دار بيروت للطباعة والنشر– بيروت، ط١، ١٩٧٨م.
٦٧. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، تح. عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٩٧٩م.
٦٨. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
٦٩. النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، علي بن عيسىٰ بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني. تح. محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام. سلسلة الذخائر. دار المعارف – مصر، ط٣، ١٩٧٦م.

٧٠. نهاية الأرب في فنون الأدب ، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

٧١. نواهد الأبكار وشواهد الأفكار، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تح. محمد كمال علي وآخرين، جامعة أم القرىٰ، كلية الدعوة وأصول الدين. المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٥هـ.